لُـجَّـةُ الأَلم

علي أحمد ناصر

في لجَّـة النزوح

رائعة هي الأحلام تتفتحُ رغم الآلام بنيناً وبناتٍ يأتين بعد مخاض مدمٍ لكنه رحيمٌ، جميلةٌ هي انبثاقاتُ أوراقِ الشَّجرِ من ثنايا أغصانٍ مُتصلّبةِ الملامحِ، فالولاداتُ القيصريةُ قد تنتجُ قياصرةً!

هو الربيعُ يأتي بعد صقيعِ الانتظارِ وسُباتِ الأحلامِ. يأتي وفي الرُّوحِ فيضٌ من انفجارٍ غاضبٍ ملَّ الحوارَ العقيمَ أو اللا حوار. ولتكن شرارةُ القدحِ كِذبةً أو مزحةً أو حتى ازوراراً!

هي الثَّورةُ إذنْ ما قيل ويقالُ، الثورةُ انقلابٌ على الفظائعِ والذرائعِ والمجونِ والاضطهادِ والعِتْهِ وكُلِّ ما خيَّمَ على الشعبِ من كذبٍ ورياءٍ وظُلمٍ وجهلٍ واعتداءٍ.

وصدَّقْتُ الحكايةَ! وقبلَ أن يفيقَ الوجومُ وتستيقظُ الرؤى الحالماتُ باخضرارِ الطبيعةِ ورحيلِ البُعبُعِ المرسومِ في خِطَطِ المُحالِ كانتْ نهايةُ ابتسامةٍ لم تمتطُّ شَفتايَ لها بُرهةً ولا خدَّانِ انبسطا، أو بريقٌ في عينين لمعَ!

حدثَتِ الثَّورةُ فعلاً، فقد انقلبتِ الأرضُ، علاها سافِلُها، صارتِ المجاريُر بواباتِ الرَّحمةِ، والبواديَ منتهى السلامِ، والهِجرةُ حجَّاً مبروراً في بلادِ الفرارِ!

أعرفُ جَدّيَ ثائراً ضدَّ الأتراكِ، وأبي مناضلاً ضدَّ الفرنجةِ ولا أجدُ أنا من أثورُ عليه! فصرتُ وأمثالي عالةً على قضيةٍ مستوردةٍ لأمرٍ باتَ مكشوفاً لضعيف البصيرة، مما حداهم ليأتوا بالثوارِ من كل البلدان! محمّلين إياهُم صفةَ الجهادِ المقدَّسِ! واشتروا مَنْ وطنُهُ جيبُهُ بما يملأ قعرَهُ دراهمَ معدوداتٍ ليصبحَ ثائراً ضد هدفٍ جديدٍ يصنعُهُ وغدٌ ما، أو قرارٌ من والٍ لم يسمعْ به واحدنا من قبل!

في ظلِّ الهزيمةِ كما في نهارهم تختفي الحضارةُ فجأة! حافلاتُ النَّقلِ المكيَّفَةُ الفارهةُ التي كانت تنقلنا بين محافظاتِ الوطنِ صارتْ مشاريعَ خطفٍ وابتزازٍ؛ الطُّرقُ المعبَّدةُ أضحتْ تقودُ مستخدمِيها إلى جُحورٍ عبوديةٍ وانتهاكِ أعراضٍ وحُرماتٍ آدميةٍ، وربما إلى جَزِّ الأعناقِ وتمريغِ الرؤوس، أو قد تصبحُ دون سابق إنذارٍ خشباتِ مسارح يتمُّ فيها التَّمثيلُ بأحدِ أفرادِ أسرتِكَ أمامَك بعد ابتزازِكَ للمشاركةِ بانتهاكِ عَرضِكَ أو استباحتكَ أنتَ جنسياً! أو إجبارِكَ على التمثيلِ في عروضٍ إباحيةٍ تحت سطوعِ الشمسِ وسطَ ترهيبٍ وترغيبٍ بالنَّجاةِ كاذبٍ يسوطُهُ عليكَ سَفَّاحٌ غريبٌ يتكلَّمُ لغتَكَ أو يرطِنُ بها!

عندما هربتُ مع أسرتي وعمومِ أهل قريتي السورية النائية في باديتها، كان "أهل الخير" كما وصفوا أنفسهم في انتظارنا، قالوا: "إن ضاق الوطن! هناك تركيا ثم أوروبة. "جنانُها وخضرةُ جبالها ووديانها ستكون مستقرَّنا ووطننا الثاني، وربما الأفضل!

كانت الرحلةُ شاقةً جداً ومتشعّبةَ الاتجاهاتِ، معقدةً ومشبعةً بالذّلِ في كثيرٍ من المفازاتِ. انتهت برياً عند ساحل تركيٍّ جنوبي حيث اتجهوا بنا نحو جزائر اليونان في مراكب حُشرنا فيها كالدجاج أو الماعز أو كغيرها من القطعان.

عندما تصبح في البحر في قارب يتسع لخمسين آدميٍّ حُشر فيه خمسُ مئة تعرفُ أنَّك في يومِ حشرٍ لا يومَ أمل.

مدخراتُ العمر من مالٍ ومُصاغٍ أو من أموالِ مساعداتٍ دوليةٍ كما ادَّعوا وصدَّقنا. جميعُها صارت في أيدٍ أمينةٍ! في أيدي تجارِ تهريبِ النازحين السوريين إلى أوروبة!

عندما تفقدُ مالَكَ باسم إيداعِه أمانةً أولاً ثم تكاليفَ تهريبِك ثانياً وتضعُ جسدَكَ محشوراً في مضيق لا يكفي لحجم طفلك الصغير عندئذ فقط تفقدُ رجولتك وكرامتك وتديُنَك وكل إنسانيتِك.

صفعةٌ على الوجه، "قف أيها الحيوان، ألا ترى أن المكان لا يتسع لعجيزتك، وأن غيرَكَ مثلُك سيهرب!"

بصاقٌ في وجهك، "نظِّف وجهك أيها الخنزير القذر، يبدو أنك لم تغتسل منذ أشهر! لو يتسع المكانُ للركلِ لركلتُك على قفاك، أو رميتك أرضاً ورفعت رجليك لتتحمل سياط الربان."

هي الثورةُ ونحن هنا في وسط البحر ثوارٌ مقموعونَ مسجلون خونةً أو حطباً ليوم جديد، صرنا بين ليلة وضحاها أسرى تجارها القراصنة، ومتكسبيها من كل حدب وصوب! نحن الحطبُ الرافضُ الاشتعالَ في الوطن، قد نصبح خشبَ نجاةٍ في البحر لو كنا فعلا من جنسِ الشجرِ!

البحرُ يصفنُ ملياً يتهادى المركبُ على سطحه كأرجوحةِ طفلٍ صغيرٍ. هل يفكرُ بآلامنا ويرحمُ ضعفنا، أم هو كما يقال عنه غدار لا يعرف عند الغضب غنياً فاجراً من بائسٍ فقير حقير!

لا يعكرُ صفوَهُ شخيرُ المحرّكِ العَتِهِ ولا بُكاءُ رضيعٍ رافضٍ حنانَ أُمِّهِ المصعوقةِ من هَولِ دُوارِهِ العجيب! أو من مصيرٍ يجثِمُ فوقَ صدرِها النحيلِ الناسي كيف ينتِجُ الحليب!

ليتني أعرفُ ما يضمرُ هذا الكبيرُ! لكِنَّ عجزي عن فهم الثورة يقنعني باضمحلال ظنوني فيه.

تململ الجبارُ قليلاً، ليتني ما أثرتُ ظنونَهُ، ولا شكَكْتُ بصفاء ذاتهِ أو حركةِ لواعِجِ قلبه!

الموج يعلو ويكاد لا ينزل، وحين يهبطُ المركبُ تسقط الجموعُ بعضُها فوق بعضها الآخر؛

بعضُ الموجِ يلتفُّ ويحضنُ المركبَ كشالٍ ضُربَ طرَفُهُ في الهواءِ ليحومَ حول الرأسِ.

شيءٌ ما يصدم جدران القارب الخشبيةَ المتصدعةَ، يحطم تالفَها، ويَدخُلُ من خلال تشقُّقاتها. تتسرَّبُ مُندسَّةً بقوةِ المياهُ التي كانت سوداءَ قبل قليلٍ، فصارتْ بيضاءَ فوق مستوى الأقدامِ، ها هو الماءُ يتلوَّنُ أيضاً بسرعةٍ، فيظلِم ما حولَنا، ويهادنُنا بين أرجلنا بصفاءٍ نادرٍ! أم هل عَقِلَ هزيمَتَنا من الوطن، لنركن إليه في عقر دارِهِ الصخِبِ هذا؟ بعد أن تركْنا بلدنا بين مخالبِ وحوشٍ أتتْ من مفاوزَ

غريبةٍ عجيبةِ الأطوار، خائفين على جلودنا القشيبةِ من أن تنشبَ فيها، فهربنا بها منها إلى حيث نقضي بيد الرب دون سفك دماءٍ ترى أو تُحْتَسَبُ على بشر!!

أرجوحةُ الطِّفلِ صارتْ للكبارِ فجأةً، وكنْتُ أحلم بالأراجيح مذ كنت طفلاً لا يملك فرنكا واحداً في العيد أجرة الدقائق الخمسة من فرحِ صعودِ السماءِ والرجوعِ إلى الأسفلِ برعب مستحبٍّ حتى الموت!

مقدَمةُ القاربِ ترتفعُ، فيختلطُ الرجالُ بالنساءِ والأطفالِ والحقائب، ويضيعُ الاحتشامُ والاحترامُ وغض البصرِ وقصْرُ اليدِ، فالكلُّ حريصٌ بالتَّمسُّكِ بأيِّ شيءٍ تقبضُ عليه أصابعُه المرتعشةُ المالكة قوةَ التمسك بالجمادِ أيّاً كان هذا الجمادُ، فالخِشية من السقوطِ في قعرِ اليمِّ لا تزيدُها خشيةٌ، لكنَّ مشيئةَ القاربِ أو الموجِ أو القدرِ مشيئةٌ أخرى!

تنعكسُ الاتجاهاتُ فجأةً وبسرعةِ البرقِ، يستعيدُ القاربُ عقله لثوان تخالُها عقوداً من سنين فيصبح من كان في الأعلى أسفل السافلين!

قلت لوهلة:

– الأرجوحةُ رغم إرهابها الشديدِ أكثرُ رحمةً من إرهاب الذبح في القرية لشيخها الجليل الذي رفض الشتم والقدح على منبر أيام الجمعة! وحاولتُ السماجةَ في هذا الوقت العصيبِ فخلت القارب يتأرجح يمينا ويساراً، أي على خاصرتيه الضيقتين.

يا لأفكاري الفوضوية التي يتشربها الموجُ ويحولها إلى حقيقة!

هل غفوت في هذا الركامِ من الأفكار الشاحباتِ أم هي حمى البحر استكانت من صبري عليها! أم هي القادماتُ من الساعات؟ لست أدري، ما أعرفه أنَّ النساءَ تصرخُ وتزعقُ، ويشهقُ الأطفالُ بالبكاءِ والسيداتُ بالعويل، والرجال صناديدٌ يلوذون وحدهم بالصمتِ!

والصمتُ بالون الرجاء! ينتفخُ يعلو بالصدور كاظمةِ الألمِ والحسرة والندمِ، الصمتُ عضلاتٌ تُحطِّمُ صخورَ البأسِ واليأسِ والصبرِ، الصَّمتُ قِفلُ استكانةٍ امتدَّتْ من القناعةِ بالثَّورةِ العوراءِ الخانقةِ أحلامَ الأبناءِ في بوتَقةِ مشيئةِ خنوعِ الآباءِ المهزومينَ بفعلِ نصلِ سيفٍ صنعتْهُ أيدٍ كأيدينا وحزَّتْهُ على رقابٍ كرقابنا، لكننا آثرنا الضَّعفَ قوةً نباهي فيها بلاهةَ الجبناءِ. الصمتُ بالونٌ سينفجرُ في لحظةٍ تكادُ تكونُ الآنَ.

صرخَ رجلٌ: " هل نحنُ أغنامٌ لديكم؟"

وجاء الجوابُ سريعاً: " نعم، غنمٌ ميِّتٌ لا فائدةَ منه."

وقُذِفَ الرجلُ في البحرِ طعاماً لأسماكٍ عابرة. لم نسمعِ استغاثتَه، ازدردَ الماءَ وهو يتخبَّطُ فيه وابتلعه البحر. وكالغضبِ في صدورِ رجالٍ لا تقوى على البوحِ فار زبدُ البحرِ مكانَ سقوطه. لكنه سرعان ما اختلط بزرقة البحر الداكنة. وسرعان ما صار من ذاكرة قديمة، وكأن شيئاً لم يحدثْ، فالأحداثُ المتلاحقةُ على المركِبِ تنسيك ما صارَ قبيل ثوان!

هرعَتْ زوجتُه ووليدُها في حُضنِها:

" خافوا من الله، إنه زوجي، ليس لي إلاه!"

وحاولتْ رميَ نفسِها في البحرِ خلْفَه، لكن نسوةً منعنَها، والجزارون ما يزالون ينظرون بِحُنقٍ ويبصقون، فيتناثرُ رذاذُ بُصاقهم على لِحىً غيرِ حليقةٍ للشبابِ والرجالِ الذين نكصوا برؤوسِهم خِشيةَ بلاءٍ جديدٍ قد يلحقُ بهم أو بغيرهم من ذوي هذا البأسِ القاتل.

هي محكمةُ الوضعِ الراهنِ إذن! محكمةٌ يُصدِرُ الأمينُ على أرواحنا وأموالنا حكمَهُ دونَ حقِّ المتهمِ بالدِّفاعِ عن نفسِه، دونَ توكيلِ محامٍ، دونَ نقاشٍ، ودونَ رحمةٍ بتنفيذِ الأحكامِ الجائرة!

في القريةِ، وفي الحكم الداعشي المستعمرِ للعرضِ والأرضِ والدينِ كانتْ تقامُ محاكماتٌ قراقوشيةٌ تُلهينا بسُخفِ عقولِ قضاتِها غيرِ المتعلمينَ أصولَ القراءةِ العربية والكتابةِ بشكلٍ موفقٍ فكيف بأصولِ الدينِ التي لُقِّنوا بها وبها يتشدقون!

هناك كانتِ المحاكمُ تثيرُ الشفقةَ أو الغيظَ أو الحِنقَ أو الكُفرَ بعينه، أما هنا في وسطِ البحرِ حيثُ لا جدارٌ تُخفيَ سُخريتَك خلفَه ولا ثوبٌ تغطيَ أسنانَكَ المشدودةَ به أو حتى هواء تتنفسُ عبرَهُ شهيقَ تذمرِكَ، هنا القضاءُ قضاءٌ عليك سريعاً، ظالماً أو مظلوماً، فالتخلصُ منْ وزنِك في خيرِ القاربِ المترنحِ كسكيرٍ ملَّهُ الشرابُ والجدرانُ التي يرتطمُ بها، والهواءُ الملوثُ بأنفاسِهِ القذرةِ المالحةِ والآذانُ التي ملَّتِ الاستماعَ لتُرَّهاتِ حديثِه.

القضاءُ على المتهمِ هو القضاءُ في محكمةِ البحر! ولا متهمَ إلا من يرفُضُ وجودَهُ الربانُ أو أحدُ رجالِه المخنثين أو فاقدي العفةِ بأجملِ وصفٍ وأنبلِ توصيفٍ!

ويخيمُ سكونٌ قاتمٌ لثوانٍ قليلةٍ بعدَ تنفيذ حكمِ الإعدام غرقاً، لا يعكِرُه سوى صوتُ المحركِ المضطربِ الناقمِ بدورِهِ على حمولةٍ تزيدُ عن طاقته! كأنَّه يستجدي الربانَ محاكمةً ثانيةً وثالثةً وعاشرةً، فهل يفقهُ المحركُ أيضاً أفعالَ البشر؟ أم أفعالُهم مألوفةٌ لدى الخشبِ والحديدِ العائمِ وحيداً في هذا الخلاء.

أصواتٌ أخرى تبدأُ الثورةَ البحريةَ، يصرخُ طفلٌ من الجوعِ وآخرُ لدغَ بولُه جِلدَه المحمرَّ المُسمَطَ، وهناك من تحت جلد رقبتها يصدرُ أنينُ امرأةٍ فقدتْ وليدَها المريضَ المقذوفَ عند الفجرِ في البحرِ أيضاً بذريعةِ أنَّ مرضَهُ سريعُ العدوى، قد ينتقلُ إلى بقيةِ الركابِ حسب قرارٍ طِبّيٍّ أصدره الربانُ المُعتمرُ قبعةَ الحياةِ والموتِ، والمتلبِّسِ ثوبَ الرحمةِ والبلاءِ والنِقمةِ والرجاءِ.

*

وحيدةٌ تقبع قرب المحرك في الخلف، إنها العجوزُ آكلة لحم ابنها، حملَها جيرانُها عنوةً معهم، لم تبلغِ الستينَ من عمرِها، لكن الشيخوخة استعبدتها منذُ أسابيع قليلةٍ، كان ابنُها ضابطاً في الجيشِ، توقفتْ عند حاجزٍ ثورجيٍ لتسألَ بسذاجة الملهوفةِ عن ابنها الضابطِ الذي لم يساعدْها أحدٌ بدفعِ فِديتِه، فدعَوها على الرحبِ والسعةِ لتتناول الطعامَ معهم، بعد أن تم إقناعُها بأنه سيأتي قريباً معززاً مكرماً ليقبّل يديها الطاهرتين، وبعد تناولها الطعامَ معهم سألوها إن أحسَّت بابنها القريبِ منها وقد قبَّل للتوِ يدَها، فأجابتهم لا، لم يأتِ بعدُ، ولم تشاهدْه!

هنا ضحكَ الثورجيونَ بصخَبٍ عالٍ وهم يشيرونَ إلى اللحمِ الذي تناولَتْ بعضَه قائلين، إنَّ آثارَ دِهنِ ابنِكِ على يديكِ وشفتيكِ وأنَّ ما تناولتِه هو من لحمِ ابنِكِ النقيبِ!

هي وحدها التي لم تصدق الروايةَ هناك، والتي لم يُطبِق فمُها عن اللغو هنا متحدثةً إلى نفسِها تارةً، وإلى ابنها تارةً أخرى، وإلى ربِّ العالمين مرات، ومراتٍ، ومراتٍ؛ تسألُه عن عظيمِ ذنوبِها الذي وضعها في هذا الموقفِ، وعن حجمِ ذنوب البشرِ في هذا الوطن الحبيبِ لتندفعَ الشياطينُ بينَهم بمثل جسومِهم وتفعلَ ما تفعلُ، دونَ رقيبٍ أو حسيبٍ.

تتكلمُ وحيدةً وسيمفونيةُ نحيبٍ شِبهِ صامتٍ ترافقُها من نسوةٍ وبعضِ رجالٍ يلتصقون بها!

*

ترفعُ رأسَكَ في دائرةِ الأفقِ حولك، ترى آثارَ حياةٍ وحركةٍ، في البعيدِ تمرُ بعضُ السفنِ، وهناك بعضُ بوارجِ الأسطولِ السادسِ الأمريكي متفرقةٌ متباعدةٌ؛ وقبلَ أنْ تفكرَ باستغاثةٍ تسمعُ التحذيرَ والتهديدَ، يمنعُ الجميعَ من الصُراخِ أو رفعِ الأيدي أو التأشيرِ بالملابسِ للسفنِ العابرةِ الأخرى طلباً للمساعدة أو النجدة.

الحزنُ يخيمُ على الجميعِ، وكذلك الهلعُ من الغرقِ أو الرعبِ من اقترابِ سمكةِ قِرشٍ أو حوتٍ أو قرصانٍ من نوعٍ أكثرَ لؤماً وكراهيةً من الربانِ وزبانيتِه.

الرجالُ النازحونَ صامتون، ثرثراتُ البَشَرِ تعبَثُ في رؤوسهم، وتزمجرُ وتشلُّ تفكيرَهم، فلا يقوى على العملِ، لا مناصَ الآنَ من الصمتِ.

لعلنا نصلُ بأمانٍ، عندها ستتفجرُ النفوسُ وسترُفعُ الرؤوسُ، وقد تُحطِمُ جباهَ الطغاةِ الذين كانوا ملائكةً على البرِّ، حتى صارت الأموالُ مودعةً في بنوكهم، وها هم الآن جلاوذةٌ، يتربصون بكل خانعٍ منا، يحدقون في عقاربَ ساعاتِهم الجامدةِ، علَّ سكينتَها تُخترقُ من مخذولِ حظٍ يُمْكِنهُمُ التخلُّصَ من جسدهِ التعيسِ في سلةِ مهملاتٍ لا تشبعُ، فتنقصُ حمولتَهم المشبعةَ كراهيةً وبغضاءَ ونِقمةً، ليصبحَ الإبحارُ أسهلُ، والوصولُ إلى الهدفِ أسرعُ.

ولكن ماذا لو هبت عاصفةٌ؟

قالوا على البر مُطَمْئِنين: " ليس الأوانُ أوانَ عواصفٍ، ونحنُ وإياكم في القاربِ معاً، نموتُ معاً أو نحيا معاً."

الجوابُ مقنعٌ كان، والآنَ تتغيرُ الآراءُ، فكيف يفكرُ المرءُ بخلاصٍ ممكنٍ في بحرٍ غدارٍ، كما يقولُ بحَّارةُ الكتبِ والرواياتِ.

سؤالٌ كان يراودُ كلَّ رجلٍ أو شابٍ ربما! سؤالٌ سألته نفسيَ بإلحاحٍ مقيتٍ:

– أنت أيها الرجلُ المفتولُ الذراعين، هل تستطيعُ إنقاذَ زوجتِك وطفليك؟ وكيف تفعلُ ويحول بينك وبينهم عشراتٌ من الغرقى إن نكصَ القاربُ!

لا تفكرْ بالموتِ يأتيك! فكِّرْ في الحياةِ، لكن اللحظةَ آتيةٌ لا محال.

وتهبُّ الريحُ من الأسفلِ. من أين أتت؟ لا أحدٌ يعرفُ، فالسكونُ كان مخيماً قبل دقائقَ على سطح البحرِ الهادئِ كطفلٍ مستغرقٍ في نومِه البديعِ، شيءٌ من قعرِ البحرِ يرفَعُ القاربَ للأعلى، تصرخُ النُسوةُ، يبكي الأولادُ، يتضرَّعُ الرجالُ، يشتمُ البحارةُ ويبصِقُ القُبطانُ، صراخٌ وزعيقٌ من كل ناحيةٍ، يسقُطُ الجميعُ فوقَ الجميعِ، يتقلبون طائرين في الجوِّ كقرونِ الباميا‌ءِ في مقلاةِ طباخٍ ماهرٍ اسمُه البحرُ هنا.

خديجة، أين أنت؟ عامر! أحمد! حسين! حسني! علا! ميسم! سوزي! ماريا!

وتختلطُ الأسماءُ ويُقلَبُ المركَبُ فجأة رأساً على عقِبٍ.

لا زوجتُك قريبةٌ منكَ كما حسبت وكما يقتضي شرعُ تفريق الرجال عن النساء! ولا ابنك الصغيرُ، من تنقذُ من هؤلاء؟؟ تُمسِكُ بيدِ طفلٍ، لقد فارق الحياةَ، اتركه هذه فتاةٌ، تمسكُ من رِجْلِها الأقرب إليكَ، تستحيَ، تتركُها، تحاولُ الإمساكَ بيدها. تفقدُها أيضاً، لماذا يموتُ الناسُ بسرعةٍ هكذا؟ تسبحُ بما أوتيتَ من قوة جندي خدم في البحريةِ السورية يوم كان مجنداً، تتذكرُ دروس التوجيهِ، الوقتُ وقتُ شهامةٍ، الموجُ يباعدُ ما بين الناسِ بغضبٍ، صراخُهم تُخرسُه المياهُ المالحة، الأمواج تلاطمُ أحدَهم بالآخر، بعضُ ثيابٍ تطفو لوهلةٍ ثم تغوص قبل أن تلحقَ بها... تخبطٌ في الماء حتى الإعياءْ!

تستعيدُ غضبَك وتحولُه إلى شكيمةٍ تُنقذُ بها من تستطيعُ من البشر، كلهم هنا أهلك وأبناؤك، فلا وسيلة للبحث عنهم خلف جدران الموج الملتويةِ والمرتفعة بخيلاء القدر!

المراكب البعيدة جاءت دون طلبات استغاثة! تقترب كالجبال من بعيد تكاد تدهسك وفجأة تشعرُ أنكَ ميتٌ، وكيفَ يكونُ الموتُ؟ لا تدري.

*

- ما اسمك؟

وتتساءلُ: "ألا تعرفُ الملائكةُ اسمي؟ وهل لاسمي مكانٌ في السماءِ، وأنا لم أستطع إنقاذ زوجتي أو ابني!"

تبتسمُ، فيخرجُ الماءُ من رئتيكَ، وربما تصحبُه أسماكٌ بريئاتُ مثلك وُجدن في الوقت الخطأ والمكان الخطأِ، أو ربما تخرج من بين أسنانك أشلاءٌ أو قاذوراتٌ، لست تدري، فالكونُ بحيرة مالحةٌ!

تتنفسُ من جديدٍ؟ هل كانت القصةُ أضغاثَ أحلامٍ، أو كابوسَ بحرٍ من نوعٍ ليس ككوابيسِ البرّ؟

- كم شخصاً كنتم على سطح المركب؟

وتفتحُ عينيكَ؟ وتتساءلُ، هل كانتا فعلاً مغمضتين؟!

بحارةٌ ببزاتٍ بيضاءَ، يتكلمونَ غيرَ لغتِكَ، لكنَّكَ تفهمُ عليهم. تدورُ بك النجومُ، وتُنْعَشُ من جديدٍ. يُجلسونَك، يتكئُ ظهرك على جدارٍ ليس جداراً موجياً، ربما كان برميلاً أسطوانياً، يصفو ذهنُك قليلاً. وتكتشفُ أنك كنت غريقاً وتمَّ إنقاذُكَ، وهذه سفينةٌ عابرةٌ مثلَ كلِ السفنِ التي مُنعْتَ من طلبِ نجدتِها قبل الكارثةِ مخافةَ أن تقذفَ في البحرِ حياً!

تنظرُ حولك، بضعُ عشراتٍ من الغرقى مستلقونَ هنا وهناك. بعض الفتيانِ والرجالِ جالسون. وبعض الفتياتِ كذلك. لا أطفالَ بينهم يشبهون ابنَك، ولا امرأةٌ تلبسُ ثيابَ زوجتِك. تعرف أنك الناجي الوحيدُ ربما من أسرتِك التي هاجرتَ بها كي تحفظَها وكرامتَك معاً بعيداً عن جهادِ النِّكاحِ أو الانخراطِ في تخريب بلدِكَ أو. أو الهربِ نحو المجهولِ الجميلِ، في أوروبة الجميلة.

تفتشُ عن دمعةٍ فتأبى عيناكَ البُكاء، تحاولُ الصراخَ فيجفُ حلقُك، ويلتصقُ لسانُك بسقفِ فَمِك. يداكَ مشلولتان مرخيتان قربَك مثلَ خرقتين من يباسٍ رطبٍ.

قال الربان الغريبُ وهو يقدم لك كأسَ شرابٍ فاخرٍ:

– باسمي وباسم طاقَمِ سفينةِ "الوطن" تُحييكَ ونشربُ نخبَ من أنقذَ عشرين طفلاً وطفلةَ من القاربِ المنكوبِ.

يضع شيئاً حاراً في فمكَ، يسقطُ في بُلعومِك ويدخلُ رئتيكَ وعينيك وأنفيك ونحركَ. تسعلُ، فتنثرُ السائلَ في كل مكان.

ترى في الضبابِ أفواهاً تضحكُ، وقبعاتٍ بيضاء وزرقاءَ ترتفعُ في السماءِ، وتذهب مع الريحِ ثانية، ترفعُكَ الأمواجُ، والصراخُ بين يديك، والأرواحُ تعلو على يمينك ويسارك، ضحكٌ وصخب، بكاء ونحيب. ويستمر الهواء باختراق رئتيك. والماء يتسرب منهما.

على ضفة الشهادة

تنأى الحدودُ، وتبتعدُ، وفي مركز الدوامة تدورُ.

تختلط الاتجاهاتُ، وبوصلةُ الوقتِ شاميَّة!

لا حريرٌ، ولا خزٌّ، لا رفاهٌ ولا عِزٌّ.

لا جاهٌ ولا مالُ. لا ولهٌ، أو وصالْ

بعيداً عن تراب سورية!

*

كنتُ أظنُّها حُرةً نفسي، تسوحُ، في الدنيا تجولُ، عصفورَ حبٍّ، يغزو جمال الحقول.

وفي أنَّةِ الحنين، يصارعُ بأسي يأسي، فأرتمي على شائك الهوى مِزقاً بلا جوازِ سفر.

*

في كوخٍ بنته الغربة الكربةُ أعيشُ النَّوى وفي حضن الوطن طِوى.

أُستثيغ الخبزَ في صنارة الفساد، وفي الشِّباك أذوبُ مع أتاواتي سُدى!

وأُدفن موؤوداً في العفنِ، أنسجُه فراشَ عشقٍ؛ لِحافُه قدَّ من خَيشِ.

*

أُنثرُ على هامش الشهاداتِ، وأدفنُها في الركن السلافاتِ. وهناك تستجدي زيتاً مقلاةٌ بلا خفر! وتخرجُ كالمغص الآهاتُ، فأسجدُ حتى السحر. أسترضي القمرَ لكي يردَ لي بعضَ ريش!

*

بعيداً عن الحدودِ، وفي قعر الوطن، ينادي العَلَمُ. وحين ينادي يُترَكُ القلمُ.

تحت رفيفهِ تَصَغَّرُ الهاماتُ، ويَدفَعُ الولاءُ البلاءَ لمحو المؤامرات.

لا فرق عند الكفاح بين بضٍّ وغضٍّ. في حومة الوغى كلٌّ للعدى ضدُّ.

وهناك ظننته يقوى بُنيَّ. بعد إذ كان بتلةً طريَّة!

لكنها الأيام تترى. وقبل اشتداد العُودِ، وتعلُّم الزَّود عن النفس والصمود، تدعوه دِرعا ونَوى، وعمرُه شهران في الجيش!

*

لم تكن بندقيةٌ له صديقةً، ولا الهراوةُ خيرَ رفيقة.

فالمآذن رصاص وابل، وأصائص الورد من الشرفات قنابل!

هل يُعقلُ هذا يا وطن الأم؟

هل نشتري الفوضى بالدم؟

استبدله القائدُ ببديلٍ، فصار البديل بعد ثوانٍ شهيداً.

وفي اللَّيل يزمجرُ ويلٌ، ونورُ الهاتف الجوالِ وعيدٌ.

قنْصٌ في القلبِ من بعيدٍ يُصلى. وجنديٌ على الأرضِ يصيرُ لعبةَ صيد!

- أي نداء ولدي؟ في المعارك لا تَخاطُبَ، لا رسائل.
- تحذير ربما أبتي! فأنا في الساح أقاتل.

لكن الموت شبحٌ عبرَ، فهناك المواعيد له كُثُر، في إزرع، وإدلب، وأريحا.

في حماة والزبداني والتل، والزمنُ المرُّ يمرُّ، وفي البيت يذوي العائل.

رفض الموتَ أم الموتُ رَفضَه؟ والرفضُ في الحرب جريمة.

- أبتي رفضتُ الأمرَ اليوم!
- لا تكن متهوراً يا ولدي!
- وقِدْتُ الرَّفْضَ!

في الحرب الرفضُ إباءٌ وليس خيانة حينما يصبح المالُ ثمنَ الأمانة. والشرف مِزحةُ طيش!

*

في بلادي صار الرصاصُ مطراً، والإرهابُ ثورةً والعشقُ خطراً.

تجشأَ البعيرُ التَّأسلمَ في الصحارى، وقاءَهُ في بلادي جهاداً.

" من يدخل دار أبي سفيان آمن."

خرج الآمنون بسيفِ صاحب الدار وارتفع بغتةً في البلد التكبيرُ الإنذار.

النحر للمهاجرين، الذبح للأنصار.

هكذا أفتى، وهكذا يفتي كبيرُ الأحبار وفي يديه الشيش!

*

وفي يوم هادرٍ بالقذائف، عاصفٍ راعدٍ قاصفٍ.

من لجَّة قبر الصمت الواجم على صراخٍ راعفٍ يهدرُ زعيقٌ صاعقٌ قاهرٌ هاتف:

- ألو، مرحبا يا عمُّ!

في الصوت توجَّستُ البلاء. ففي ثنايا الثواني جنازاتُ الشهداء. كنتُ أخشى اليومَ هذا. ليس رفضاً للقضاء، ولا لواجبِ الوطن الفداء بل لقهرٍ يتقلَّى فوق جمرٍ وينتظر انفجارا!

- ألو، إنه مصاب.

وتتالت في الصوت البعيدِ القريبِ الأعذار، وأنا أستجدي الكلمة الأخيرة منه. وهو يطيلُ التمهيدَ؛ يظنُّه يبرّدُ الجرحَ ويُطفئ الأوار.

- في الرأس الإصابة. بضعُ طلقاتٍ سابحةٍ خامشةٍ ساحجةٍ، وحروقٌ. و، في الرأس الإصابة!
- كفى يا عمُّ كفى، لا تزد ناري ناراً، ودع ليلي يمضي، عل فداءَه نفسي ترحلُ قبل أن يأتيه بالأجلِ باقي نهار. وعلى الأكتاف يوضع ابني في نُعيش!

على الصخرة

جلسَ القرفصاءَ على صخرةٍ مُطلَّةٍ على الوادي السّحيقِ الممتدِّ حتى البحر. حدَّقَ في البعيدِ، علَّه يلتقطُ زُرقةَ الأفقِ، لكنَّ سحابةً وليدةً شفَّافةً بيضاءَ تمدَّدت متثائبةً للأعلى، فتلاشت في أكمامِها بعضُ أطراف الجبال البعيدةِ، واختفى استواءُ السَّماء على بساطٍ خلفَها، فقصرَ سامي طرفَه وهو ينكش بعودٍ يابس بعض بقايا طحالبَ جافَّةً عن كرسيه الصَّلبِ غيرِ الوثيرِ.

توقَّفت أصابعُهُ المتطاولةُ حول الغِصنِ الجافِّ المتكسِّرِ عن دودةٍ تطاولَتْ غاضبةً باعثةً طاقةَ حِقدٍ التصقتْ بوجهِه شبكةَ عنكبوتٍ لزجةً ومقرفةً، حاول إزالتَها بِفركِ وجهِهِ بعصبيةٍ لم تنتهِ قبل اعتذارٍ صامتٍ قبلتْهُ الدّودةُ على مضضٍ، وهي تنسحبُ مفتشةً عن مأوى يقيها الضوءَ الفاضحَ جسدِها تحت قبةِ السّماءِ الغاصَّةِ بالطيورِ الجائعةِ، أو غضباً ينتجُه امتعاضُ البشريِّ المترهلِ في الأعلى.

سألَ نفسَه وهو يتابعُ زحفَ الدّودةِ تحتَ قوسِ حذائِهِ منحدرةً نحو ظلِّ الصخرةِ:

- لِمَ لَمْ أدهسِ الدودةَ لأردَّ المهانةَ؟

أجابَتْه نفسُه:

- وكيفَ تردَّ بُصاقَها عن وجهِك، هل تنظفُه سوائلُ جثتِها الآيلةُ للجفافِ على أسفلِ حذائكَ أو برأسِ قضيبٍ يابسٍ كان مسكنَها المحطَّمَ بعصبيتِك الجانية!

رفع رأسَه الثقيلَ نحو طلائع خطِّ الأفقِ المنبلجِ تحت عباءةِ السّحابةِ السامقة نحو العلاء، فشعرَ براحةٍ ما، زفرَ بها هُبابَ رئتيه الملوثَ بعصارةِ صديقته، لفافة التبغ.

كان جناحا السّحابةِ المنبسطان على تخوم ضفتي الوادي العاليتين يتهافتان لالتقاطِ أطراف رداء سحابةٍ أُمٍّ اتشحتْ مقدمتُها ببعض سوادٍ دون عُبوسٍ.

نسمةٌ رطبةٌ ملأت فراغَ الرئتين المتعبتين بالضباب السام، هواءُ الجبال يوسّعُ الصدرَ ليعبَّ من النسيم العليل ما يعوّضُ بعضَ الآثامِ القادمةِ من خنوعِ عبودية العادة المعفَّرةِ بغاز الكربون أحادي الأوكسجين، الخوَّاضةِ بعجين قطرانها النتِن.

- تفوقُني الدودةُ قوةً.

قرر سامي ذلك، وشيء ما يرفعُه عن الصخرة، لكنَّ عجيزتَه المتململةَ بقيت شبه ملتصقة بجاذبية الصخر الأصم.

أرسلَ نفسَه لتستكشفَ أمرَ الدودة تحت الصخرة، فسارعت للقول:

- مازالتْ تبصقُ عليك، فلا تحطيمك سباتها نفعها بطعام ولا واسعُ فضائك أرسى لها طمأنينة، لكنها زال غضبها إذ اكتشفت خطأ

بصاقها، خسرانُ السوائل المخزنةِ يُضعفُ طاقتَها على الصمودِ في النهار القادم، فراحت تقتات ببقايا ترابيةٍ رطبة. ونستك كأنك لم تكن!

- هي فلسفتكِ، وليست فلسفتُها!
- بل سِنَّةُ حياتِها، وقانونُ الطبيعة الذي لا تشذ عنه كما تفعل أنت، أيها البشري!

نهض سامي، أبعد ثيابَه الملتصقة عن مؤخرته الحارة والمتألمة، وراح يحاذرُ دهسَ دودةٍ قد تمرُّ مصادفةً في طريقه، أو يعترضُ مشيئتَها. وبينما كانت السحابةُ تلحقُ بأمِّها وصل إلى البيت، وشرع يحضِّرُ طعامَ العصافيرِ المحبوسة في القفصِ، بأمر الجوعِ المنغِّصِ عليه شغفَ التأمُّلِ.

نشرت في مجلة الأربعاء الملحقة بجريدة المدينة المنورة – السعودية.

الجـدار

دخلَ مكتبَ البريدِ العتيقِ بأحجارِه الرماديةِ، رمز عشراتٍ كثيرةٍ من سني الصمودِ أمامَ الثلجِ والمطر والانتظار.

جال بنظره على كُوى بيع الطوابع والبطاقات التذكارية، وكأنه يحيّيها ركناً، ركناً، ثم طأطأ رأسه كمحارب مهزوم.

نظر بحبٍّ إلى أرضِ الصَّالة التي كان يقضي فيها –فيما مضى– ساعاتٍ طويلةً يكرّرُ خلالها رسمَ الزخارفِ الدقيقةِ لبلاطها البديعِ، حتى صارَ يكتشفُ كلَّ تشوُّهٍ بسيطٍ فيه قد يسبّبُه سقوطُ جسمٍ ثقيلٍ أو حادٍ عليه، أو لأي سبب آخر لا ينتظر طويلاً التساؤل عنه، فالجوابُ يأتيه من إحدى الموظفات قبل أن ينطقَ به. كلُّ شيءٍ في المكانِ يعرفُه، كما يعرفُ كلَّ نقطةٍ فيه! في تلك الحجرة ذات الرقمِ (11) كان اتصاله الهاتفي الأولُ بخطيبته في الوطن البعيد. في الحجرةِ التي تليها سمعَ خبرَ وفاةِ والدتِه. لم يتصل منها بعد ذلك أبداً. عاملةُ المقسم لم تعطِه الغرفةَ تلكَ مرةً أخرى! ينتابه ذاتُ الشعور كلما حيَّتْ عيناهُ بابَها الخشبيَّ المتهالِكَ، تحت البُرج العالي المنتصب فوقَ المبنى مطلاً على المدينةِ، مذ كان يحملُ ناقوسَ الخطرِ الوحيدِ فيها، يومَ كان المبنى محطَّةَ البريد الرئيسيةِ أثناءَ الحرب العالمية الأخيرة! لا يصدّق حتى الآن كيفَ تجمَّع برج المبنى وقتذاك ليدكَّه في حُجرة الهاتف الخشبية التي لا تتسع لأكثر من شخص ثانٍ، يحشر أحدهما الآخر فيها.

كما يصبحُ فصُّ الثوم عجيناً في الهاون صار حُطامَ إنسانٍ في تلك الحجرة. ينظر بعينين كسيرتين إلى الباب الخشبي ويهمسُ شيءٌ في صدره:

"خلفك بقايا عظامي. خلفك بقي شبابي وهناك ماتت آخر ابتساماتي."
تحسَّسَ في جيب سترته الرماديةِ خيالَ قطعةٍ نقديةٍ كانت ثمنَ الطابعِ البريديّ الأخيرِ الذي أودعَهُ ريقه، شيئاً منه، يعودُ للوطن! مرت سنواتٌ وسنواتٌ، وما يزالُ خيالُ القطعةِ النقديةِ في ذات الركن من ذاتِ السُّترة! هجرتِ الألوانُ الصحيحةُ سُترتَه، كما فعلتْ بشعرِ رأسِه ولحيتِه التي أعلنت شيخوخَتَه قبل الموعد، دون استئذانه! تعرفُ شعيراتُ ذقنِه أنَّها خالفت رأيَه وهي تنطلقُ في لحيةٍ تزدادُ بياضاً يوماً بعد يومٍ، كثلجِ الميلاد، لكنَّ الثلجَ يأتي ولا يعود قبل الشتاء، في حين تكتسي وجهَه طوالَ العُمر سنواتٌ قادمةٌ متزاحمةً وكأنها جاءت في قطارٍ سريعٍ، وكان يظنُّها قد تأتي بطيئةً! حتى أسنانُه بدأتْ بالهربِ منه، ملَّت اصطكاكَ البردِ والطعامَ الجافَّ والخوفَ!

رفعت لوليتا أصابعَها المتراقصةَ في الهواء، تُحييه من خلف زجاجِ كُوَّتِها. كانت فيما مضى منْ أجملِ من رأى من فتياتٍ، فكان يرى فيها وجهَ حبيبتِه. عيناها أبهرتاهُ طويلاً ببريقِ الفتوَّةِ والحياة، كما توردَ وما يزالُ خدَّاها نضرين، وكأنهما تفاحتان في خُضرة الأغصانِ تموجان مع النُّسيمات الضاحكة في تلك اللوحة المقابلة!

– تنساكَ صبايا بلادِك، وتعشقُ الغربةَ!

لا تملُّ ترديدَ هذه العبارةِ مُذْ تعارفا ها هنا، ولا يزالُ يذكرُ خطيبتَه كلما ردَّدتْها. تزوَّجَتْ لوليتا، وأنجبتْ طفلةً تزغردُ كبلبلِ الوطنِ كلما زارتْها أماسي أيام السَّبت! وما تزالُ لوليتا منجذبة لهذا الذي ما يزال يدعي الغربةَ! شيءٌ في أعماقِها يهفو إليهِ!

– دعني أكونُ لكَ الوطنَ في هذه الوحشةِ!

كانت دعوتها تنتهي دوماً بضجيج الدبابات الذي يحاول إسكاتَ عويلِ النِّساءِ .

عويلٌ ما يزالُ رغم الزَّمنِ المتطاول يصعقُ أذنيهِ، ويطغى ضوضاؤه على ضجيجِ الأطفالِ حولَه في محطةِ البريد، أو في حديقةِ الحرية غير بعيد عنها. حتى العنوانُ الذي كان يتفننُ بكتابتِه على مغلفاتِ الرسائلِ صارَ سراباً.

قيلَ إنَّ الطائراتِ قصفَتْ منزلَ الأسرة، قبل أن تكمِلَ الجرافاتُ إزالتَه من الوجود.

لم يرحموا الأمَّ الثكلى الأرملةَ، فقضَتْ آخرَ لحظاتِها بارَّةً بقسمِها ألّا تغادرَ المنزلَ إلا إلى القبر! لكنَّها صارتْ أشلاءَ بعد القصفِ الصهيوني الهمجي!

كانَت تفرزُ بقايا حطامِ حُصيَّاتٍ متخفيةً عن عدسِ الحِساء، عندما فاجأها صاروخٌ من مروحية! فيها جنودٌ يفاخرون بالنَّصر على عجوز وبعضِ حبِّ العدس!

أنذروها باسم "السامية والإنسانية" إخلاء المنزل قبلَ يومٍ واحدٍ. هم أصحاب كلمة واحدةٍ لا تتكررُ!

"ابنُك فجَّرَ نفسَه بدوريةِ تفتيشٍ. إرهابيٌّ هوَ من رحْمِ إرهابية! كانتِ الدوريةُ وقتذاك تطلقُ النارَ على أطفال حجارةٍ، دفاعاً عن النفس!"

اختلط دمُ الأمِّ بطعامٍ قَيدِ الإعدادِ لأخْوةِ الشهيدِ، وأبناءِ الشهيد، وبأثاثِ المنزل العتيقِ قِدَمَ النَّكبةِ والخيانةِ والتفكير باتفاقيات (السلامِ)، فصارت الأمُّ شهيدةً أيضاً.

كانت خطيبتُه تساعدُها، هي جارةٌ، وفي غدٍ قريبٍ سوف تصبحُ زوجةَ الابن المسافر للدراسة في أوروبة! أين هذا الغد! متى تفرجُ أوراقُ التقويمِ عن غدٍ كهذا!

ويعلو العويلُ نحو السماء، هناكَ كانت الطائرات تخترقُ جدارَ الصَّوت، لكنَّ

صوتَ الشهداءِ يخترقُ كلَّ الأجواءِ، ويحتلُّ كلَّ الأصداء، حتى يجدُ الضميرَ! وتضيعُ الأصداءُ في وطني الكبير، تجولُ، وتجولُ، ولا جدران توقفها فيسمعها السامعون! ظنَّ أنَّ اسمَ أخيهِ سيطلقُ على الشَّارعِ حيث يقطنون، لكنَّ الشارعَ استشهدَ أيضاً، بعد أن أقاموا مكانَه الجدارَ. إلى أين يرسلُ الرسالة؟ هل يكتبُ على الغلاف "حي الجدار" والجدار يمتد من الشريان إلى الشريان!

رائحةُ القهوةِ ودخانُ السيجارةِ الرخيصةِ المشتعلةِ أمامَ أنفِه وعينيهِ يوقظانُه، ليمسحَ غشاوةَ الدمع، بين لحظةٍ وأخرى، ويشكرُ لوليتا صاحبةَ الابتسامة الوحيدةِ التي لم تشِخْ، كما شاخ وعجزت. رمقَ بحرقةٍ غرفةَ الهاتف صاحبةَ الخبرِ المشؤومِ، وارتشفَ رشفةَ قهوةٍ مع غصَّتِه، وحدَّقَ ثانيةً في الوطن البعيد.

2006-04-26

الحارس

صفيرُ المياهِ المنسابةِ بقوةٍ من خلالِ مواسير الحمَّاماتِ يَئِزُّ في رأْسي، ضجيجُهَا المختلِطُ بروائحِ المجرورِ الآسِنِ يسُدُّ مداخِلَ نافوخي. أُحسُّ رأْسِي كالجبَلِ المقابلِ ضخامةً. الخوذةُ المطبِقةُ عليهِ صخرةٌ جوفاءُ كتلك القُبَّةِ التجسُّسية المعاديةِ، مع فارقِ أنَّ خوذتي تحصرُ روائحَ وضجيجَ وقاذوراتِ الفيلا المهجورةِ منذ زمن، بينما تستخبرُ تلك القُبَّةُ أسرارَ تحركاتِنَا ليلَ نهار، وهي القابعةُ منذ النكسة على قمة التلِّ المقابلِ.

بُرودةُ الصَّباحِ اللَّذيذةُ تستدرجُ الكرى إلى عينيَّ المتعبتين، وتخدِّرُ الأطرافَ الموهنةَ عقبَ يومِ عملٍ طويلٍ في تنظيفِ (فيلا) ستصبحُ مقرَّاً للقائدِ الذي سيخطِّطُ ورفاقُهُ كيفيَّةَ تحريرِ الجبلِ المقابلِ من وسخِ العدوان.

- ما أصعبَ الحراسةَ بعد التَّعبِ. لِمَ لَمْ يأتُوا بعددٍ كافٍ من الجنود للمساعدة؟
- السِّرِّيةُ؟
- نعم، سِرِّيةُ المكانِ مطلوبةٌ، ولا شك أنَّني محظوظٌ بثقةِ الكبارِ، وإلاَّ لما كنتُ من القليلين الذين يعملون في هذا المقرّ.

هيه. الحمدُ لله، لقد أنجزنا العملَ بأسرعِ مما كان متوقعاً. صارت الحمَّاماتُ نظيفةً جداً، ولم تعدْ هناك روائحُ غيرِ العطرة، أمَّا غرفُ النوم فقد أُعِدَّتْ وكأن

عروساً ستقضي فيها ليلتها الأولى، في حين جُهِّزَت صالةُ الاجتماعات بتجهيزات سرية لم يطلعوني عليها، الويل لك أيها العدو من تصميمنا.

لم تكن تحركاتنا لتثيرَ الرِّيبةَ أبداً، السياراتُ التي نستخدمها قديمةٌ صدئةٌ، وتثير الاشمئزازَ، فهل يُعقلُ أن يصورَها منظارُ العدو!

- لا، لا.

ما زال فحيحُ المياهِ في المواسيرِ، وروائحُ المكان القديمةُ تسيطرُ على أعصابي، أكادُ أتقيَّأ، لا، السببُ بردُ الفجرِ، وليس تعبُ الأمس.

لم أحرس بوابةً من قبل، لكن، للضرورة أحكامٌ. فقد صدر لي الأمر بأخذ الحيطةِ لِزيارةٍ مُفاجئةٍ يقوم بها الضابطُ القائدُ الكبيرُ بنفسه، وهذا سِرٌّ لا يعرفُهُ غيري، فعليَّ الحَذَرُ! أَعرِفُ أَنَّ الجميعَ نيامٌ الآن أو شبهَ نيامٍ. التَّعبُ ملعونٌ، ليرتاحوا قليلاً، أما أنا فلا أستطيعُ خيانةَ الثِّقةِ.

ماذا لو جاء بعضُ القادةِ لاجتماعٍ سرِّيٍّ مهمٍّ، وأنا نائمٌ. لعنةُ اللهِ على الشيطان، للنوم سلطانٌ لا يقوى عليه أحدٌ. أين أنتِ يا خطيبتي، لعلَّك الآنَ تنعمين بدفء الفراشِ، تَغُطِّينَ بنومٍ هانئٍ عميقٍ، وأنا هنا في العراءِ القارسِ، أتَّكئُ على بندقيتي القديمةِ، خوذتي تُنكِصُ رأسي، وصقيعٌ يجمِّدُ أطرافي، هي نوبةُ الحراسة سوف تنتهي، عاجلاً أو آجلاً، لا يهم، أيُعقلُ تسليمُ البوابةِ لمجندٍ جديدٍ! قد يغفو في أيَّةِ لحظةٍ، دونَ تقديرٍ لجلالِ المهمَّةِ! لا، ثم لا!

آهٍ، إنَّهُ الكرى ثانيةً، إغفاءَةٌ قصيرةٌ لنْ تؤثِّرَ، سأسمعُ صوت السيارة قبل وصولها، هذا إنْ جاءَ أحدٌ، ومنْ يأتي في مثل هذا الصباحِ الباكرِ! القائدُ وغيرُه، لا شكَّ، نيامٌ في مثل هذا الوقتِ من الفجر، نومُ الفجرِ لذيذٌ، تُحبُّه كلاب الحراسة أيضاً، وهم الأعرفُ بهذهِ اللَّذةِ بعد حراسةِ الليلِ الطويلِةِ، وفقدانِ الأملِ من نباحٍ على لصٍّ أو غريبٍ، من يفوِّتُ نومَ هذه اللَّحظاتِ غيرُ مُجْبَرٍ مثلي، لكنَّ ثوانٍ من النوم لن تُزيدَ أو تُنقصَ منْ احترامِي لواجبِي الوطنيِّ، أين أنتَ أيها الفراشُ الدافئُ، أين!

حفيفُ أَفعى يقتربُ صوته، أَفعى مفترسةٌ، البردُ يقلِّصُ عضلاتي، أنكمشُ كقطٍ صغير حشر في زاوية، إنَّهُ حلمٌ ولاشكَّ، أو كابوس، نعمْ حلمٌ، وأنا لا أخشى أحلامي.

– انتبه!

– أعوذ بالله من الشيطان الر...

– نائم! والله عال! خذوه إلى السجن فوراً!

– لستُ نائماً يا سيدي، الله وكيلك...

–كيف لم تحسَّ بالنملة تقترب إذن! هه؟

ها هو القائدُ، إنه لاشكَّ قائدٌ، وإلا لما كان سائقُهُ يقود المرسيدس "النملة"

لماذا يقذفني جانباً مرافقُ القائدِ وكأنني دجاجةٌ انتهى من ذبحها للتو، فلا أستطيعُ النهوض لقوةِ ارتطامي بالأرضِ، طبعاً لم يعرفني، ولم يعرف أيضاً أني المسؤول عن الفيلا صيانةً وأمناً حتى وصول القائد.

فتحَ السائقُ البابَ الخلفي لإحدى السيارات في الطابور، بينما ظهر بلمحِ البصر شخصان كالماردين، تأبطا ذراعي القائد المنهكِ، الذي كاد يسقط بينهما، خفت عليه. ربما كان في اجتماع سري طويل في مكان ما آخر، وقد استولى عليه سلطانُ النَّوم كما فعلَ بي، أزرارُ قميصِهِ مفتوحةٌ، قد يأخذ برداً.

قلت لهم:

"دفِّئوا صدرَهُ المكشوفَ، حرامٌ عليكم!"

- اخرسْ، ولاه!

حتى حزامُ سروالِه كان مفكوكاً، تُرى لماذا لا يعقدون اجتماعاتهم الليليةَ بملابسَ فضفاضةٍ ومريحةٍ؟ فهم يقضون الليالي في التخطيطِ والنقاشات وإصدار القرارات الحكيمةِ.

مرَّ قربي شبه نائمٍ، بعينين نصفَ مفتوحتين، نظرتُه فيها عتبٌ، ربما اعتذرَ فيها عن سوء تصرفِ مرافقِه، لكنَّ رائحةً كريهةً صدرتْ منه أفقدتْني صوابي، هل هو مريضٌ حقاً أم أن روائحَ الأمسِ مازالت في أنفي.

لا، ليستْ روائحُ مجاريرٍ والعياذ بالله، فهي حامضيةٌ، لا أذكر أين شممتُها من قبل.

- ابتعد عن الطريقِ يا حيوان!

سمعتُها بذهولٍ هذه المرَّة، نظرتُ نحو الخلفِ، كان هناكَ ثمَّةَ امرأةٍ شقراءَ طويلة، وقد تخاصَرَها أحدُ المرافقين المردةُ، كانت الملاءةُ السوداءُ تنحسرُ من حينٍ لآخرَ عن فخذين كالمرمرِ الأبيضِ، وقد ظهرَ للحظة ثوبٌ شفَّافٌ ذو بريقٍ يأخذُ الأبصارَ، أعوذ بالله، هل يعقل أنَّها راقصةٌ ما! لا، مُحال! القائدُ لا يفعلُها.

-هل رأيتَ شيئاً أيها الحيوانُ!

فجأةً، فهمتُ القصةَ بسرعةِ مُتيقِّظٍ لا ينامُ، فقلتُ:

- ماذا رأيتُ يا سيدي؟! لم أرَ شيئاً بالطبع، ألم تقلْ إنِّي كنت نائماً.

الثأر

صديقان في مقتبلِ العُمرِ، خبِرا المودَّةَ منذُ نعومةِ أظفارِهما. كانا يذهبان معاً إلى المدرسةِ، ومنها معاً يعودان، يسهران إلى طاولةِ دراسةٍ واحدةٍ، ليلةً في بيتِ هذا وأخرى في بيت ذاك.

لا يشعُران بلَذَّة الطَّعام إلا معاً، لذلك تحدَّثَ عنهُما النَّاسُ طويلاً:

– لم نشاهدْ صديقين ودودين مثلَهما من قبل.

– لا يستطيع أحدُهما فراقَ صاحبِه.

– إذا أردْتَ معرفةَ مكانِ أحمدَ اسألْ عن محمد، ستجدْه معه في منزله.

قالَ شيخٌ طاعنٌ بالسِّنِّ يوماً:

"عاشَ في قريتِنا صديقان حميمان جداً، ماتَ أحدُهما فجأةً، وبعد أسبوعٍ واحدٍ فقط وُجِدَ الآخرُ ميْتاً على قبر صديقِه. وهذان الشابان يذكِّراني بتلك القصة دوماً."

اعتاد الصديقان منذ الطفولة اللعب في بستان النخيل خارجَ القريةِ، حيث يسجلان جُلَّ الذكريات الحبيبة، يتبادلان الهمومَ، ويناقشان مشاكلَهما. ولطالما طلعا بأفكارٍ ذكيةٍ، وكتبا معاً أحلى القصائد.

عندما جاء الصيفُ الحار، وبعد صلاةِ جمعةٍ خرج الشابان من المسجدِ واشتريا بطيخةً حمراءَ، اشتهيا تناولها في بستانِ النخيل، المقرِ الصيفي الدائم لهما.

- لمْ أتذوقْ خلال حياتي كلَّها ألذّ من هذا الحبحب! (1)
- كذلك منْ يسمعُك، إنَّه حلوٌ كالعسلِ، لكنَّه يكسرُ حدةَ العطشِ، خُذ كُل.
- ألمْ تلاحظْ أنَّني تناولتُ منْه أكثر مما فعلتَ أنتَ؟ هيا، هيا، خذْ منه أكثرَ وأَطفئ نارَ جوفِك بهذه البرودةِ اللذيذةِ، واستمتعْ بهذا المنظرِ الأحمرِ كالدَّمِ.

خطرتْ موجةُ مشاكَسةٍ حولَ رأسَي الصديقين فجأةً، بكلِّ غُنْجٍ ودلالٍ.

- الدمُ حارٌ، والحبحبُ باردٌ!
- إذا كنتَ تقصدُ دمَكَ، فهو باردٌ أيضاً، خاصةً بعد تناولِ البطيخِ.

هنا، لعبَ الشَّكُّ في ذهنِ الصَّديقِ، وبدأتْ لُعبةَ الشَّرِّ تتدخلُ بين الحبيبين لتختبرَ قوةَ العلاقةِ بينهما ومتانتِها.

- ماذا تقصد؟ هل تشتمني حقاً؟
- لا، لا، بل أقصد أن هذا البطيخ يتسلل فعلاً إلى الدم ويبرده.
- لا تتفلسف يا أخي أرجوك!

هنا ارتفعت وتيرة التحدي، والتفَّت موجة حارة حول الرأسين الصغيرين وأودعت سمومها في صدغين يانعين:

- بل أقول الحقيقة، وإذا أردت معرفتها، دعنا نلعب لعبة الفرسان الأعداء، وعندما يسيل دم أحدنا نقارن حرارته بحرارة الحبحب!

- لا أُحبُّ اللَّعِبَ بالسَّكاكين.

ضحِكَ الصديقُ ساخِراً:

- وهذا دليلُ برودةِ دمِكَ!

هنا اقتربَ أحمدُ، ووجَّهَ سِكِّينه نحو وجه محمد، وهو يقولُ بنبرةٍ رجوليةٍ حماسيةٍ يحاول أن يضاهي بها فارساً شاهده في مسلسل تلفزيوني تاريخي معروف.

- خذ هذه الضربة إذن أيها الساخن!

لكن محمدَ أبعدَ رأسَه إلى الخلفِ، ودفعَ سكينه نحو صدرِ أحمدَ وهو يقولُ:

- أرى أنَّ حرارَتَك بدأت بالارتفاع. خذ هذه الطعنةَ أيها الجبان!

واستقرَّت السِّكينُ فِعلاً في صدر أحمد، فأرتجَ عليه، ولمْ يستطِعْ التَّفوُّهَ بكلمةٍ واحدةٍ، وهو يُحملقُ تارةً في جسدِ صديقِه الذي همدَ بسرعةٍ لم يتوقَّعْها، وتارةً في قبضتِهِ الآثمةِ التي ما تزالُ مُمسكةً بالسكين المنتزعَة من صدرِ الصريعِ بصعوبةٍ بالغةٍ!

صوتٌ من صدرِهِ بدأ يخرجُ ويعلو كالبركان:

"ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟"

ردد البستان المتعجِّبُ أصداءَ الصُّراخِ، وأرسلَها نحو أطرافِ القرية: "لا، لا، لا."

شخصٌ ما، معتوهٌ ربما، أو مجنون، أو شاردٌ، أو هاربٌ، توجَّهَ دون هدى نحو القرية راكضاً، وهو يصرخ بصوتٍ مبحوحٍ: "لا، لا، لا"

التف حوله بعضُ الناس وسألوه:

- ماذا حلَّ بك يا محمد؟
- أين صديقُك أحمد؟
- لماذا تحملُ هذه السكين؟
- ما هذه الدماء؟؟

لم تخرج من فيه الكلماتُ، كالأصمِّ صوَّت، وهو يقودُهم راكضاً نحو بستان النَّخيل، حتى وصلَ إلى جثَّةِ صديقِه الهامدة في بُركة من الدماءِ الحارة وقد اختلطت ببقايا قِطعِ البطيخِ التي كان قد ضرب بها الأرض قبل تسرب الدماء نحوها بعد مغادرته المكان.

صرخَ محمدٌ، بصوتٍ يكسوهُ العويلُ والنَّحيب، والدموعُ تسيل من عينيه الحمراوين من شِدَّةِ البُكاء:

- هل تعلمونَ مَن هذا؟ إنه أحمد! صديقي، حبيبي، أخي، قتلتُه بيدي الآثمة هذه، كيف أعيش بعدَك يا أخي كيف؟ يجب أن ألحقَ بك. نعم، كنَّا نلعبُ ونلهو، لكنَّ الشيطان د..دخلَ في اللعبة، وتسابقنا معاً إلى الموت، وأنتَ من سبقَ. مع من سأكمل اللعبةَ بعدَك؟ سألعبُها وحيداً وسوف اضرب نفسي نيابة عنك، نعم إنها العدالة. نعم، نعم.

طعن محمدٌ نفسه بالسكين في الصدر وهو يصرخ:

_ من الجبان أيها الأحمق؟ خذها من يد صديق أودعته آخرته!

وخر ساقطاً صريعاً على الأرض وعيناه مثبتتان بشيء ما في السماء وابتسامة صفراء استقرت على وجهِه وكأنه يرى روحَ صديقِه، تستقبله بعفو واشتياق.

(1) الحبحب: البطيخ الأحمر.

نشرت في مجلة الأربعاء الأسبوعية السعودية في 1999/7/7 الموافق 23 ربيع الأول 1420هـ

خسارة

رفضت الزواجَ للمرَّة الرَّابعة، رغم محاولات والديها المتكرّرة لإقناعها أن من تقدم لطلب يدها في كل مرَّة كان من خِيرةِ شباب البلدة تديُّناً وعِلماً وأخلاقاً.

ولما كان والدها يستشعرُ حساسيتَها المفرطةَ في البيت وانطواءها غير العادي الذي رافقها منذ بلغت سن الزواج، قررَ عدم الضغط عليها، فقد تكونُ كما ظن، تحت وطأةِ وضعٍ نفسي خاص، يحتاجُ إلى بصيرةٍ وصبر منه، لكنَّ الصبرَ كاد ينفذ عندما فوجئ بموافقتها على الزواج من متعب الذي فاتح أخاها برغبته بها حليلة بعد فشل زواجه من ابنة عمه.

تساؤلاتٌ كثيرة لم يجدْ لها حلاً ولم تُحر الابنة جواباً يشفي غليله، وأمام إصرارها وافق الأبُ على زواجها من ابن أبي متعب الثري الذي يملك المال الكثير، ولا يملك شيئاً سواه غير الزوجات والأبناء.

عندما عادت سعاد لزيارة أهلها بعد قضاء شهر العسل حملت معها ما ينوء به الآدمي من ذهب ومجوهراتٍ، بالإضافة إلى حقيبة جلدية قدمتها لأبيها بفخر:

- خذ يا أبي اقبر الفقر.
- ما هذا يا بنيَّة؟

- هذا مهري الذي رفضتَ قبضه، وتلك مجوهراتٌ تبيعُها، وتشتري بثمنها بيتاً جديداً، وتدير عملاً يخرج باقي أفراد الأسرة من دوامة العوز.

غضب الأب غضباً شديداً. استطاع لوهلة السيطرة عليه فكبح جماحه واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبعصبية مكبوتة قال:

- ومن طلب منك المال؟ الثروة يا ابنتي في الأخلاق الحميدة والشرف الرفيع، وما كان رفضي لهذا المبلغ المرتفع مهراً لك سوى قناعتي بأنك لا تقدرين بثمن! أليس هذا ما ربيتكم عليه؟

باستحياء وقناعة وشعور بالمسؤولية وواقعية استشعرتها الابنة المضحية قالت بهدوء:

- صدقت يا والدي، لكنني أرى الآن بمنظار جديد، أنا التي حلمت طويلا بالتعليم الجامعي، ولم أحصل عليه بسبب المال، لماذا نحن بلا تعليم عال، وما نفع هذا السجن الذي نحن فيه تمضغنا رفوف المكتبة!

لملم أبو سعاد نفسه وخرج وهو يضرب كفاً بكف ويقول: "لقد خسرنا البنت!"

نشرت في مجلة الأربعاء الثقافية السعودية في العدد الصادر في 8 آذار مارس 30/2000ذو الحجة 1420هـ

صداع

أيقظهُ ضجيجُ الشارع وصوت المروحةِ القريبةِ من السريرِ، فتحَ عينيه على الساعة الكبيرة المعطلة منذ أشهر طويلة، تذكر أنه استبدلَ لها عِدةَ أنواعٍ من البطاريات ولم تنفع معها، إنها هدية تلاميذ زوجته لها بمناسبة عيد المعلم، وتكاليف إصلاحها تكفي لشراء واحدة أفضل منها، لذلك هي باقية بهيكلها البلاستيكي الجميل.

الهواء الحار الموجه له من المروحة دليل استمرار وجود الكهرباء في البيت وانقطاعها في المكتب، متابعة النوم أفضل إذن، فالصداع المتحكم مذ استلقى في الثالثة صباحاً استيقظ ثائراً معه.

مطارُ الطبقة هو السببُ، كان تصريح قائدِ المطار مريحاً يوم قبل أمس، رغم إشارته إلى تفريغه من الطائرات والحوامات إلى مناطق آمنة، وما يزال القتال عنيفاً ضد شراذم الإرهابيين من أنصار (داعش) الإرهابية. وكان قد سمع من مصادر موثوق بها في وسائل التواصل الاجتماعي الشعبية أن قوات خاصة كبيرة العدد قد توجهت إلى الطبقة لحماية المطار. لكنه نامَ على خبرِ سقوط المطار بيد الأعداء المهاجمين كالجراد بأسلحة أمريكية حديثة ومتطورة، سيطروا عليها في العراق إثر خيانة الضباط العراقيين أو استسلامهم للسفاحين الجدد الذين لم يوفروا أحداً منهم، فنحروهم كما تُنحرُ النّعاجُ، وبثوا أشرطةَ الفيديو على التويتر ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى لبث الرعب والرهبة في نفوس المواطنين ومن يقاومهم من جيوش، من جهة، ولكي يعيدوا مجد (الدولة الإسلامية) السابقة التي كانت

تنحر جنود أعدائها ولا تقبل بهم أسرى وتستبيح نساءهم أو تبيعها مع أطفالهم في أسواق نخاسة عصرية.

الصداعُ يزدادُ، والرَّأس يكبرُ، يتلمَّسُ رأسَه، ضاغطاً بقوة عليه، فتقف سيارتا سابا كريهتان أمامَه، ينتزع نفسَه التي صارتْ فجأةً امرأة ضخمةَ الجثّة يدفعُها بكلتا يديه، فيُدخلُ كتلَها اللحميةَ المترهلةَ تحت فستانِها الفضفاضِ المصنوع من القماش الرخيص المبقع بأزهارٍ زرقاءَ صغيرة. تنظر العجوزُ الشمطاءُ إليه بلا مبالاةٍ، وهي تمضغُ ريقها، فترقصُ جِلدتا خديها للأعلى والأسفل، بينما يتنهد من بعض صداع أودعه السيارة الخلفية، وبقي واقفاً وكأن الهمَّ صارَ بعيداً عنه، وهو ليس من راكبي السيارات إلا مضطراً. واليوم لن يركبَ سيارةَ أجرة فالمئة ليرة قد استهلك بالأمس خمس عشرة منها أجرة السرفيس إلى البيت. ظل واقفاً قرب السيارة الأولى دون حراك كما السيارتين الصفراوين الكريهتين بمن فيهما.

قد تكون هناك مبررات تكتيكية واستراتيجية للتخلي عن مطار الطبقة على حد زعم المحلل السياسي، الذي شتمه شتيمة بذيئة لم يتلفظ بمثلها منذ سنوات بعيدة بُعد السعادة عنه، وغيَّر المحطة عندما بدأ تبريراته السفسطائية، إذ كيف يكون التخلي عن النقطة الدفاعية الأخيرة في الجزيرة السورية مبرراً بعد إخلائه من الطائرات والحوامات! ولماذا تم إخلاؤه أصلاً؟

صحيح أنه لا يفهم بالشأن العسكري شأنه شأن المحلل السياسي والمذيعة التي أحرجته باستطرادها (وكذلك قلتم أن الفرقة 17 واللواء 93 قوتان لا يمكن الاستغناء عنهما ولن تسقطا بيد الدواعش) لكن المطار يحتوي على تجهيزات الكترونية ورادارات ومئات المليارات من الليرات السورية منثورة في البنية التحتية

وسواها والتي لا يمكن نقلها بأشهر وربما بسنين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لماذا لا تتم إبادة هؤلاء جوياً بمساعدة قوى دولية مثل روسيا التي تربطنا بها معاهدة دفاع مشترك، فالبند السابع أصبح في مصلحتنا إثر قرار مجلس الأمن 2071.

صوت فيروز يرتفع، رفع رأسه، نظر إلى ساعة جواله، إنها التاسعة وعشر دقائق، سينهض الآن فالوقت مناسب كي يصل إلى مكتبه عند العاشرة مع التيار الكهربائي تماماً. دقق سمعه بصوت فيروز، هل هو من الشارع ليدل على سيارة بيع اسطوانات الغاز، أم من الصالون؟ لكن صوت المنجمة في محطة شام ف م تؤكد العكس. البيت خال من غاز الطبخ، فقد استهلك المطبخ وللمرة الأولى ثلاث أسطوانات غاز خلال شهر واحد. السبب هو نقص كمية الغاز فيها سرقةً من بائعيها وليس بعلة الاستهلاك في البيت.

ألقى تحية الصباح على زوجته وابنته اللتين تتحدثان بموضوع غير التنجيم، وأثناء عبوره بهما نحو المغسلة، بادرته زوجته:

" سيارة الغاز تحت، لا أحد منهم ينظر للأعلى كي يرانا ليأتي لنا بأسطوانة غاز، راحت السيارة ولم نستفد منها، إنه اليوم الرابع دون غاز للطبخ!"

حلق لحيته، الصداع ما يزال حماته المتربعة وسط جمجمته، ابتسم عندما تصورت له امرأة ضخمة الجثة حشرها بصعوبة في المقعد الخلفي للسيارة الصغيرة الصفراء المتهالكة مثل أعصابه!

عند مفرق الحي وقف ينتظر السرفيس، ألم شديد في الظهر، هل هي سن الخمسين أم النوم المصحوب بهواء المروحة الحار والرطب طوال الليل، أم مطار الطبقة الذي سقط كحلم صبي بامتلاك دراجة سريعة يجوب بها الطرقات والسهول والجبال!

تلمس كيس الكتب، ما تزال بقية المئة ليرة فيه. هي النقود الوحيدة التي يمتلكها الأستاذ عبد الحليم، دعا لربه أن يقذف له طالباً في هذا الصيف المقيت، ليكمل مشوار حياته الطويل.

دار عقرب الدقائق بسرعة، تبعه عقرب الساعات مستعجلاً أحداثَ تمدُّدِ أفعوانِ (الدولة الإسلامية – الصهيونية) في ريف دير الزور والرقة وشبه الجزيرة السورية.

الجيش يسترد قرية هنا ومدينة هناك، وخادم الحرمين الشريفين يمد الإرهابيين بالدولارات الأمريكية والحوريات الأوروبيات والمخدرات الأفغانية.

صراع وصداع، والشهداء يتساقطون كعناقيد العنب، يسيل الخمر على دروب الصمت الكوني، والضجيج في الرأس المصدوم بنكسة تضغط على الأعصاب ضغطَ عجلاتِ قطار على صدر لا يموت، بل ينتفض كلما ابتعدت العجلات عنه.

الجرحى يرفضون الاستشفاء، يصرون على العودة لقتال الخونة من عبيد الريالين السعودي والقطري. يتأخر بعضهم عن الالتحاق بمراكز قتال غيرت مواقعها، فيلقون استقبالاً كريهاً في سجون ضباط صاروا أسياد الشرف الجديد.

الماء جاء غزيراً بعد انقطاع دام ثلاثة أيام، رافقت انقطاع التيار الكهربائي. وضع رأسه تحت فوهة الصنبور، فصار أحمر الرأس بلون صديد المواسير الحديدية وصدئها. لم ير شيئاً، كانت نظراته عبر جفنيه المغمضتين بغضب تتجاوز غرفة الحمَّام الضيقة، وتتجه إلى "كسب" التي زارها منذ أشهر وصارت بين ليلة وضحاها ضحية هجوم كاسح تركي دولي، تشردت بعده عشرات العائلات معيدة ذكريات إبادة الأرمن.

رفع رأسَه بعد أشهر قليلة على خبر استرجاع مدينة كسب، لقد كسبَ الجيشُ الوطنيُّ المعركةَ كما كسبَ غيرها. لكنَّ الصداع باقٍ ما بقيت الوهابيةُ درعَ المسلمين الجدُد ضدَّ حضارةِ الألوانِ التي صبغت خدودها بها ورودُ الشام.

قصة خيال علمي

الطيف الأحمر

شعرَ بصُداعٍ غريبٍ لم يعتدْهُ، فسارعَ إلى حجرةِ التعقيمِ، واستحمَّ بشعاعٍ بنفسجيّ الطيفِ، لكنَّ شيئاً غريباً لم يظهرْ على الشاشة الجدارية للحمام.

أعاد الاستحمامَ بالأشعة الطيفية المرافقة للبنفسجية دون جدوى، فقررَّ الإسراعَ إلى العيادة القريبةِ في الكويكبِ المجاورِ ممتطياً سهمَه الومضيَّ الخاصَّ.

لاحظ عبر الظلام الكوني الأهِلَّةَ خلفَه وقد بهتَت ألوانُها الزاهيةُ، مما زاد اضطرابَه قلقاً وحيرةً، فزاد من سرعةِ سهمه، متحملاً وقوعَ حوادث اصطدامٍ فيضيّ مع سهامٍ أو عربات أخرى.

كان وعيُه متضائلاً وإدراكه المكاني مهزوزاً، فلم يكترثْ للطيوف الحرارية أو حتى اللونية التي احتكَّ بها دون قصد. فتناسجَ بعضُ ذيولها مع ذيولِ طيفِ سهمه السريع، وفجأةَ اخترق مجالَه طيفُ حسناءَ أحمرُ اللونِ، مما أدى إلى ارتفاعِ ضغطِ الصُّداع في رأسه، بعد أن خلَّف راحة سريعة، لم تلبثْ أن تلاشت، لابتعاد التأثير المعاكس بالاتجاه.

شعورٌ لم يحس به من قبل، مما زاد فضولَه لمعرفةِ السبب، فعكس وجهةَ انطلاقِه وقفل راجعاً بخطٍ شبه سويّ، علَّه يتبعُ صاحبةَ الطيف الأحمر، التي باتت بعيدةً جداً في الفضاء الواسع بلا نهاية. لكن مرقابَه عالي الدقة ما يزال يُظهرُ بعضَ خيوطٍ متقطعة لطيفها على عتبة الأفق.

تساءلَ، وهو يعود ثانية إلى وجهته الأساسية السابقة نحو العيادة الكونية:

" هل اللون الأحمر هو المسبب للصداع؟ لماذا لم أستحم بالطيف الأحمر الدقيق؟ صحيح أنه يفقد آثار المرض لكنه قد يفيد بمعرفة شيء جديد، فلأكتشفنَّ ذلك بنفسي."

وانقلب بسهمه في الفضاء شاقولياً عائداً إلى مقره في كويكبه الخاص، وأسرع يعد تركيبة لونية تشبه تركيبة الطيف العابر به قبل ثوان.

"يا للغرابة!"

لم يكد يعرض نفسه للطيف الشعاعي الأحمر حتى عم الصداع رأسه وتسلل إلى بعض كيناوناته المركزية الحساسة جداً ذات البعد اكس سكستين، فسارع بالتوجه إلى مزيل شوائب الأشعة فجفف رطوبته وهو يدقق النظر في المرآة الجدارية الشفافة فلاحظ نقاطاً حمراء اللون تغزو مفاصله وتتجمع حولها فازداد خوفه وهلعه وندم على تجربته المريعة وقرر التوجه بلا إبطاء ولا نكوص إلى العيادة التخصصية.

"لا مجال للتردد هذه المرة."

أعاد ترتيب توضعه الداخلي متحملاً نبضات شاذة هنا وغير متناغمة هناك في جسمه المعقد التركيب. أما نبضات مشغله الأساسي فقد كان مونيتور (شاشة) الفحص الشامل يعطي إنذاراً عند كشف كل نبضة فيه. وكان الإنذارُ بصوت وتردد غريبين لم يستطع معرفة سرهما.

"شيء غريب حقاً! ليست المرة الأولى التي استحم بها مستخدماً الطيف الأحمر بتشعباته وتردداته المختلفة، ما الأمر الآن؟"

كان يحدث نفسه وهو يعبث بمكونات جسده ليكتشف في كل مرة وجود إشارة غريبة أو شيئاً جديداً لم يكن موجوداً من قبل. ولعل العبث الذاتي كان أحد أسباب الاضطرابات التي تظهر على المونيتور الشامل أو على بعض المونيتورات الدقيقة الموزعة هنا وهناك على مفارق جسده.

عندما أصبح خارج مسكنه مستعداً لامتطاء سهمه تعرض بشكل مباغت لسيطرة كونية على محيطه الكلي، إنه الطيف الأحمر ذاته، فبدأ يرتجف وتهتز أوصاله خشية إعادة تركيب برمجته بما لا يتوافق مع عاداته وسلوكياته الأزلية.

رأى نفسه يستطيل ببطء شديد نحو الأعلى، لم تكن الحرارة المحيطة به شديدة وغير محتمله، لكنه شعر بأنه أصبح كقطعة مطاط تستطيل ولا تقبل العودة إلى سابق كيانها، لم يستطع المقاومة ولم يرغب بها، لكن قدميه ما تزالان ثابتتين في مكانيهما رغم عدم الضغط عليهما للأسفل أو تثبيتهما بمغناطيس قوي لمقاومة الامتطاط للأعلى! أمر محير ما يحدث له، تحرك بصعوبة بعد تشغيله آلية ستاند باي وامتطى سهمه والقوة ما تزال تكبّر قامته حتى استطال بضع عشرات من المرات بتأثير القوة الحمراء المجهولة. لم يشعر بأي تغيير جذري في مكوناته سوى استطالته طولياً دون تكافؤ حجمي يعوضه تكبير جسده عرضياً وأو في باقي الاتجاهات.

راقب بهدوءٍ واهتمامِ المستكشف ما يفعل الطيف الأحمر بجسده، كانت هناك ملاقط هلامية ناعمة تجمع فقاعات حمراء من مفاصله وأطراف توصيلاته ورأسه وتجمعها في فضاء قريب من نظارتيه الواسعتين حتى شكلت هلالين متقابلين

جميلين. وفجأة نفخة ضاغطة واحدة وانتثرت الفقاعات عبر أمداء بعيدة ومختلفة الاتجاهات في فراغ الكون. وفجأة اختفى الطيف الضيف!

لاحظ وهو يتقزَّم على المونيتور الشامل وباقي المونيتورات الدقيقة جميعها عبارة واحدة لم يفهمها كتبت على شكل نبضات وماضة وتقول:

"يزول الصداع نهائياً عندما تلتصق آخر قطرة حمراء خرجت منك بجسد فضائي آخر ينحدر أصله القديم من جسد لحمي كان يجري فيه دم البشر."

هي

بذاتِ الشغفِ والذهولِ الحميمِ تبعثُ صورتَها اليوم، ليس ظهورُها حلماً هذه المرة، بل واقعاً أخشى لمسَهُ، كي لا يصدمَني بحقيقة هواجسي الاعتيادية، إنها هي بكامل قدها الأهيف، وبسحر ابتسامتها العذبة، ها هي تعبر باب غرفة الصف بذات الهدوء الواثق والسكينة السمحة، بنفس النضج الأنثوي والفتوة المتفجرة، ترقب بعينين حالمتين ناعستين، أو تقصدان بمظهر السهد شواء فؤاد يتلظى بنار الوجد وينتصب وسط لهب الانتظار قرب السبورة.

- ممكن أدخل، أستاذ؟

"وتطلبين الدخول ولم تخرجي منه مرة؟ قلبي مفتوح لك وحدك، ومنذ عصور. مذ هدل الحمام لأول مرة، واستيقظ على نشأته المزن في حضن الجبل وتصاعد نحو عليائك في نشوة وصال تجاذبته رياح سماواتك، ادخلي فالفؤاد مرجُك الأخضر، لم يرتع فيه أحدٌ غير خيالك، والمدى في الصدر فسيحُ، فسيح، والزمان بدر والسماء جنة، والحنايا كل الحنايا مشيمةٌ عذريةُ النسغ والأوان. إنه عشك المبني بالغار والرياحين والبخور وأندر الزهور..."

- عفواً، أستاذ؟ ممكن أدخل؟

"عفواً! أنا من يطلب العفو بتعجلي، أنا الهائم في ذكراك في سنين عجاف منتظراً أفقاً يطل بنورك كي أطلب الإذن بالدخول إلى شواطئ أعتابك، أنا المستأذن دوماً دون جواب، ويحن القدر فجأة فتطلبين الإذن بدخول رحابي، يا لمِنَّة السماء والأرض، يا لمنة السكاكين في قلبي، يا لمنة العهود."

لغط التلاميذ يرتفع بخبث ونميمة وحقد وغيرة.

همس أحدهم:

- ادخلي، ادخلي، لم يرك الأستاذ بعد.
- لم تتأخري، هو من دخل مبكراً. جاء صوت من مقعد خلفي.

كيف تعبر السحابة فضاء النفس بلحظة، كيف يعبر دلفين جميل مرحَ القلب ببرهة؟ كيف يرجع الوجع عشرين سنة بلمحة!

يعبر بكَ الآن تغضُّنُ الآهات وترهُّلُ الأعوام العجاف، فيسقط كاملُ الكيان في قعر ذكرى أليمة. وأي ألم وقد مسح بلسمُ طيفها وجودَ المكان والزمان وصفحَ عن كل آثام الفراق والخيانة والصلف والظلم الدفين والطافح في كل ثانية مرت حتى اللحظة.

- سكوت! اخرس يا ولد أنت وزملاؤك.

وينتبهُ الموجّهُ المتصنّعُ الغضبَ لوجودِ المدرس الواجمِ في نقطةٍ في الضياء، ويستدركُ:

- عفواً أستاذ، أنت هنا؟ ابعث لي أحداً ما من هؤلاء المشاغبين كي أجعلَه أمثولةَ للمدرسة في الانضباط.

عبرَ الموجهُ بابَ غرفة الصف وكأنَّه يلقي تحيتَه الصباحية الاعتيادية، بينما استفاقَ الأستاذُ واضعاً لحظات الشقاءِ في كيس العادة، ليلقي به في مستوعب الماضي، فأحس براحة ونشاط عجيبين وهو يرحب بطلابه وطالباته الجدد في أولى حصص العام الدراسي الجديد.

الطارئ الآن أن الصورةَ الحلم التي تتكرر كل عام صارت واقعاً، وها هي الحقيقةُ تجلس في المقعد الثالث وسط غرفة الصف، في مركز الكون. يحاول بصعوبة اقتلاع نظراته اللاصقة عن ملاحة وجهها ليوزع مها بعض المحبة والوداد على التلاميذ الطامعين بالعاطفة فلا يمل من استعادة التزود كل لحظة. لعل سهاماً مزدوجةً تنطلق عليه من ذاك المركز وليس العكس، هكذا أحس، وللمرة الأولى منذ أكثر من عشر سنين في مهنة التدريس يشعر أنه يتبادل النظرات المباشرة مع عينين فيهما المدد ومسيرة العطاء الروحي المتجددة في خضم وهن الأعصاب المتألمة.

استغرقت الحصة عشرين عاماً من حرائق الأعصاب وكهرباء الوصال. أين عظمة النسيان، أين هدوء صمت المستنقعات وطمي الذاكرة ومسامير قوارب النجاة المدفونة في قعر وحل العمر؟

عبَّ المدرِّسُ كلَّ الدُّخانِ الكثيف من لفافته المغمسة بالقطران، راكَمَ طبقات الوجعِ في رئتيه، فارتفع صدره، يستنشقُ عطرَ البنِّ ورائحةَ حبَّ الهال، لم تشبعْ قطرات الدموع هذه الليلة رماد النارجيلة الشامخة بكبريائه المستعار منها حتى أجل مسمى. جفَّت سوائلُ الفم، لعلها تغلغلت لتطفئ ألسنةَ لهبِ الجوفِ الجافة والحارة، حيث تتقافزُ الذكريات كحبات الذرة المتفجرة مالئة فراغات الضياع واليتم والعوز المتجددة في كل لحظة وحين.

إنها هي، لا، ليست هي بالتأكيد، لو كانت هي لعرفتني، وكيف تحافظ هي على عمر الفتوة عشرين عاماً، إنها نسختها الأصلية، إنها ابنتها، لا شك في ذلك أبداً، تولد في ذات المكان والزمان من العام الدراسي، تلك قبل عشرين سنة وهذه اليوم، تلك زميلتي وحبيبتي وهذه ابنتها، كلتاهما في الصف الأول الثانوي، العينان

هما هما، ببريقهما الناعس وربيعهما المشرق، والشعر الأسود هو هو هو باسترساله وطوله وانحداره اللامع نحو الخصر النحيل وفوق القد الجميل، وكذلك بياض الأسنان المتناسقة كحبات لؤلؤ استخرجت للتو من بحر الغرام ، وغمزة الخد الأيمن في ذات المكان على حد ابتسامة العشق السالبة شغاف الآه من لوعة الوادي الظمآن لسيل المطر، والرمشان هما هما قيصرا النظر الآسر، الممتشقان أبداً قامتيهما بخيلاء فرسان الحكايات .

في الطرف الآخر من المقاعد المتقاربة قبيل دخول المدرس كان يقبع قرب الجدار، نظراته مصوبة نحوها، نحو قلبه الذي سلبته ووضعته بين ضفتي دفترها، ترسمه بشكل بديع على منديل قماشي وردي بلون خديها وقد لسعتهما نسمة باردة سرقت صبح الخريف لتلون خدود العذراوات بشقاء عيون العاشقين.

هو منسوخ بشاب يصوب ذات السهام، لم يغر من نسخته، بل ظنه نفسه يكتب رسائل الحب في غفلة عن الأستاذ المنهمك بشرح مسائل الرياضيات المعقدة.

" إنها ابنتها."

قال المعلم بصوت مسموع، فطار قلبه من صدره يسبقه نحو سماعة الهاتف ليتأكد من حدسه.

لماذا لا ينتهز فرصة التأكد من هوية الطالبة الجديدة، لعلها حقاً ابنة الحبيب الأول والأخير، حبيب الأمس واليوم الغد، ستكون ابنتها، أو ربما ابنة أخت لها ما تزال تسكن هنا، فقد تشبه الفتاة خالتها، وعلم الوراثة يؤكد التشابه الكلي ولو في

نسب ضئيلة، ونسبة التشابه تكبر عند وجود التجارب الكثيرة، نعم عشرون عاماً من التوارث في عائلة واحدة أو اثنتين قد ينجب التشابه التام، لم لا؟

شيء واحد مختلف!

تراجع للخلف قليلاً من هول الاكتشاف، لكنه جلس واثقاً وهو ينفض رماد سيجارته في وسط السجائر المنتحرة حرقاً من أجل سلام روحه.

قال لنفسه الخبيثة:

" لا، اللباس الملون لا يعتبر اختلاف جوهري في الشكل، اللون الزهري حضاري وأنثوي أكثر من اللون الخاكي لبدلة الفتوة الأكثر فتنة وحضوراً... عدا ذلك لا شيء جديد إلا اللبان الذي لم تردعه الموجهة الحبلى التي ربما تكون هي في وحام على العلك الرخيص! "

سقطت السماعة فجأة من يده وتدلت كما روحه يوم وداعه إياها وهي تلوح بيدها البيضاء الناعمة من نافذة سيارة الأجرة وقد اصطحبها العريس صاحب الحظ بتعاسته عشرين سنة حتى الآن.

تساءل بعجز ظاهر: من يسأل الآن في المدرسة وقد أقفلت أبوابها، ولماذا لم يتخذ هذا القرار الحاسم في غرفة الصف نفسها، لا عيب في ذلك ولا حرج، وهو المدرس الذي حرص مذ بدأ التعليم في هذه المدرسة التعرف على جميع تلاميذه فرداً فرداً، يسأل عن أسماء يعرفها تشترك مع أسمائهم من قريب أو بعيد، عله يعثر على قريب لها، أو يشتم رائحة تقود أنفه إلى هوائها، إلا اليوم، لماذا لم يسأل؟

تلك هي المعضلة التي وجد نفسه في قعرها هذا المساء، إنه كالصياد الذي ترك راغباً الذئب ينهشه بلذة دون استخدام بندقيته التي يحملها للدفاع عن النفس.

تساءل بخذلان وحسرة ومرارة تعود عليها:

"لماذا أكرر دوماً أدوار الغباء، لماذا لم أسألها بنفسي من تكون، ابنة من هي ومن هما والداها؟"

هنا استدرك سر ضحك الصبيان في الصف وصخبهم وتعليقاتهم الجريئة وغير البريئة التي وضعته موضع اتهام طالما وضعه عندما كان طالباً، وكان صائباً في اتهامه المدرس العريس الذي خطف مناه وبقي حتى اللحظة دون منى ولا أمنيات سوى عودة الروح بلقاء طيف صاحبتها المهاجرة.

"لا شك أنني وقفت كالأبله أمام مراهقي الصف العاشر الشياطين."

ضحك من نفسه المراهقة وصمم على استرجاع رجولته في الصمود المستمر أمام ذكريات توقظها شبيهات الحب الأول الغادر كل عام دراسي جديد. وقرر أن يمتلك الشجاعة في غدٍ، ويسألها عن اسمي أبويها.

توأما الروح

غرستان صغيرتان في مشتل الزمان أفاقتا على ضياء شمس الحب.

-صباح الخير

-صباح الخير .

مشيئة الخير توجت صباحهما الأول في الحياة. ونسمة الفجر داعبت أغصانهما الغضة اليانعة، فتراقصا معها بغنج طفلين يتناغيان في غفلة الفضاء .

الكيسان الأسودان يحصران جذور الغراس، فتتجمع وتتآمر على الجدران المظلمة الهشة .

يطول الزمان مع الأغصان الفتية نحو شمس الحقيقة، وقمر الأماني .

-يا صديقة !

-أي صديقي !

وتعبُرُ نسمة قوية فتلتف الأغصان في عشق الطبيعة، تتهامس وريقات خضراء متشابكة :

-ما أحلى العناق !

- والقبل !

تستجمع الريحُ النسيماتِ لتفرق مراهقين من بني الأرز !

يضحكان، تغمز بعينيها معاً، وفي الخد غمزة، وفي القلب سماء وغيوم بيضاء وكل الصفاء.

ينظر من طرف عينه، ترسم المسافة القصيرة قبلات يضن ببعضها هواء غرفة الصف !

قالت الأيام :

"يا لطلاب العلم! يهيمون بأحلام متكسرة."

عندما بدأت السماء تغسل ابنتها الأرض، كانت قطرات الحب تنسال عن جبينيهما المتعرقين من ركض بين الأهواء .

- سنبني حماماً من البلور !

– والفضيحة !

– وهل تستحي الشمس !

ضحكت، فتناثرت نغمات في الكيان الصامد بوجه الريح !

جاء البستاني بيديه الخشنتين يفرق بين النهايات المتشابكة لغرستين جارتين منذ البذر الأول .

حمل الساقين بقبضتيه الخشنتين ورماهما إلى رفاق السور الجديد .

همس لنفسه:

"لو كان لي قصر لغرستكما على جانبي بوابته المشرعة! "

هطلت دموع على يدي البستاني الجديد وهو يغرس شجيرتي صنوبر متباعدتين، تفرقهما شجيرات أطول وأقصر !

مسح جبينه المتعرق بالدمع الحزين فتذكر أول موعد حب، ولعن زواجه التعيس، وتابع الغرس !

كانت الريح القوية تهجم من حين لآخر على البستان، كي تنثر عطر البرتقال في الأجواء، لكن شجيرات الصنوبر السامقة تصد الهجوم متمايلة بليونة أمام جبروت المد الجوي الصادم .

كانت قمتا الشجرتين الصديقتين تتغامزان بين الرؤوس إن تلاقت العيون منهما .

– لا مجال للقاء العمر !

– أزهارنا، أبواغنا !

– لا أحب الاقتران بهذا المتوحش، يبدو أنه سرو بري !

– قاومي، قاومي !

– أنى لي ذلك! لقد حشرونا معاً، مخالبه تخترقني، غليظ أنفاسه يخنقني !كم أكره الغراسين !

–غرَّاسون حمقى، جاهلون !

.....يا له من زواج !

كانت الأشجار تزداد سمنةً وكأنها حبلى !

حتى الرياح لم تعد تجدي! غاب الصديقان خلف كثيف الأشجار، والمسافة بينهما أمتار !

الجذور وحدها تتجه نحو بعضها، علمتها الطفولة كيف تجد ريح الحب خلف الجدران المظلمة .

لكن جذوراً أخرى في الطريق! لا يهم الزحام، سيأتي اللقاء، طالما توفر في الأرض بعض ماء وفي السماء الهواء وضوء القمر !

في ذات ضياء كانت المذبحة التاريخية عنوان فجر استقلال متأخر .

نظر الشيخ حواليه يتفحص وجوه الجيران الجدد كلما قطعت شجرة من جهة القلب !

نظرت العجوز عن يمينها حيث يزداد الفراغ !

بضع شجيرات قطعت لبوابة البستان الجديدة، بين شجرتي أرز شاهقتين !

ارتجفت قلوبٌ صدَّأها الزمان وندم !

جاءت الريح لتجمع شملاً فرقته الأشجار والغارسون !

تذكرا سيارة الأجرة الهوجاء تمايلهما ذات اليمين وذات الشمال، فتتلاصق الأكتاف عن قصد وعن غير قصد !

ضحكت الأغصان الصديقة بألم وهي تنظر تحتها، حيث شجيرات غضة وليدة ذات عيون ملونة بلون السرو البري!

عِشرةُ عُمْـر

لم يعثر عليها في مكانها الذي أعاد وضعها فيه بعد أن غسلها بالماء النظيف، جن جنونه، بحث عنها في الجوار، رفع أطراف أغصان الشجيرات المجاورة، عله يجدها مختبئة في ظل ما، أو خلف ساق شجيرة ممازحة، لكنه لم يعثر على شيء. نظر نحو نافذة تكرهه فشاهد الابتسامة الصفراء المقيتة ذاتها تسخر من اهتمامه.

"المعركة ستبدأ إذن."

همس لذاته المتقدة حقداً وحسرة وكراهية وخنوعاً لا يملك قدرة الإباء: "سنرى من ينتصر أخيراً."

جلس القرفصاء تحت شجرة زنزلخت وارفة الظل كثيفة الفيء رطبته، مسنداً ظهره المقوس على استقامة جذعها الشامخ شموخ نفسه المضمرة في هذا المكان الحبيب رغم سكانه ذوي الابتسامات الكريهة وكلماتهم الجميلة أحياناً.

"وحدكم أيتها الكائنات الحية الثابتة معي في ذات المكان أصدقائي. لا تغادرونني ولا أغادركم، زرعتكم بيدي الاثنتين، أشذب حولكم، أسقي ترابكم فتأكلون وتشربون من يدي، ظلكم لي عرفان بجميلي، بعض فاكهتكم يتساقط أمامي مقدماً نفسه لي، فالقطاف محرم علي لي، مفروض عليَّ لغيري. إنه زمنهم."

فتح عينيه، رأى حذاءً عسكرياً يلمع فوق التراب الناعم الذي جمعه قبل قليل بعود يابس. وقف متثاقلاً احتراماً للضابط ذي الابتسامة الصفراء.

- عمَّ كنت تبحث قبل قليل؟
- أنت من أخذها إذن؟
- ما هي؟
- التي أخذتها أنت!
- ها، ها، ها، قطعة حجر صغيرة، لا شكل لها مميز ولا قيمة؟
- لماذا أخذتها إذن؟
- خذها.

مد ضابط السجن يده ليعطيه الحصاة، وقبل أن يمسكها السجين الحدائقي قذفها الأول بعيداً. ورحل وهو يقهقه. وتابعت نظرات السجين الحصاة حتى مكان سقوطها، عرف المكان بدقة متناهية، كيف لا والمكان وجميع دقائقه أصدقاؤه منذ سنين طويلة. همس لنفسه: "ضابط جديد غبي، لا يعرف معنى عشرة العمر والصداقة بين الطبيعة وأركانها."

غلطان

- لا، لا، أنت غلطان!

صراخ عال جداً كاد يثقب أذني، انتبهت لصاحبه مهمل الثياب أشعث الشعر طويله، نحيل الجسد يمشي حافياً وبيده غصن شجيرة صغير ومرن يهزه وكأنه يهدد به شخصاً أمامه وهو مقطب الجبين حاد النظر رمد العينين.

سألت صاحب الدكان المجاور:

- ما الأمر؟
- اترك الخلق للخالق!

لم أستطع إزاحة الرجل من مخيلتي حتى عرفت قصته مع أخيه المتعلم الذي طرده من بيت أبويهما الذي رباه فيه وصرف جميع ما يملك كي يعلمه الطب! فقد زادت ديون الطبيب الجديد على ميزانية الأخ المربي فاضطره لطرده منه وتركه في الشارع.

لم يتزوج ولم يهتم بشأن حياته الخاصة مفضلاً التضحية في سبيل الأمانة التي تركها له والدهما.

"كن حريصاً على تعليم أخيك أمين، إنه ذكي وحاذق يصيد الطير بنظرة واحدة فيسقط مشوياً بين يديه، سيكون أميناً عليك وعلى أسرتك إن جعلته رجلاً مهماً."

يعرف الجيران تفاصيل القصة ودقائقها، كثيرون نصحوه بالاهتمام بنفسه أولاً وبأخيه ثانياً، لكنه رفض كل مغريات الفرص التي سنحت له كي يتزوج وينجب ويبني بيته الخاص ومؤسسة مقاولات خاصة على قد الحال، لكن الأمانة أمانة! إنه مؤتمن على أمين الطالب، على مصروفه الكبير، طالب الطب سيتخرج طبيباً في يوم من الأيام وسيكون له دخل كبير يغطي جميع الديون المسحوبة لأجل تعليمه وتخصصه. ولكل امرئ من اسمه نصيب، فمن المستحيل أن يخون أمين أخاه ومربيه والمضحي من أجل مستقبله الزاهر.

عندما فوجئ بأخيه مع لجنة إخلاء البيت المباع للمصرف لعدم استيفاء الأقساط، تقدم من أمين وقال له:

- لا، لا، أنت غلطان!

لم يضربه، لم يوبخه، لم يذكره بواجباته بدفع الديون المتراكمة بعد أن صار صاحب مال متدفق وغير محدود، وزوجته الصيدلانية تملك سيارتها الخاصة، وابنتهما الصغيرة تدرس في أغلى المدارس الخاصة.

- غلطان.

هي الصرخة الوحيدة التي يملكها بعد أن جف الكلام، هي الصرخة الأولى والأخيرة التي يتفوه بها مذ حمل عبء الأمانة. غلطان، لا، لا، غلطان.

- صرخة المظلوم لا يردها شيء إلا استجابة الخالق، فاترك الخلق للخالق.

كلمات صاحب الدكان كانت كافية حقاً، فالخلق خليط تراب الخير والشر، ووحده رب الخلق يدري. فلا حول لغيره ولا قوة على تغيير نفس من غابت عن عقله علامات الخير والشكر والأمانة.

فرحة رجل محترم

ربَطْتُها حمراء زاهية موشاة بزخارف صينية حول عنقي، قميصي المغسول ألف مرة بياقته الناهضة يساراً والمنكفئة يميناً التزم إحرام الياقة والتصق بها التصاقاً شرعياً تحت سترتي الجلدية المدبوغة للمرة الثالثة. بنطال أسود حرصت على كيه بنفسي كي أطابق حروفه الحادة على ثنية واحدة، الأمر الذي لم تكن زوجتي تمنحه عين دقتها المعهودة.

تلمست جيبي، مئتا ليرة بالتمام والكمال هي كل ما تبقى من المبلغ المستدان مؤخراً، كيلو لبن وآخر بطاطا، وأوقية لحم عجل وبندورة وخيار حسب السعر، الحمد لله. كل شيء على ما يرام.

بانتظار سيارة السرفيس التي تأخرت قليلاً جاء صاحبي المتشدق يزهو بثيابه السبور، خاتم ذهبي يلمع في بنصره، قرب سيجارة من النوع الفاخر، سلم على عجل وكأنه متأخر عن موعد خطير.

- عجيب أمر سيارات التاكسي هذه الأيام! عندما تحتاجها لا تجدها، أين أنت ذاهب يا أستاذ؟
- إلى السوق.
- نحن-إذن-على طريق واحدة، أنا ذاهب لزيارة أبو العبد، ينتظرني لنحتسي القهوة معاً، تعال معنا، هيا، جاءت سيارة التاكسي، هيا، الحر شديد هذا الصباح.

وجدت نفسي مرغماً معه، ولباقتي تستدعي دفع أجرة السيارة، بينما صديقي يتصنع البحث عن النقود وهو يقسم: "أنا من سيدفع الأجرة، ولو؟، تفضل، هذه ألف ليرة، أرجو أن يكون لديك صرافة؟"

استعاذ السائق بالله: "الله وكيلك هذه استفتاحية، هات فراطة، إذا سمحت، من أين لي ألف ليرة لأكمل لك؟"

وسرعان ما صارت المئتا ليرة في يد السائق الذي حسم أجرته وأعاد الباقي لي.

قلت لنفسي: "طارت أوقية اللحمة، ماذا سنتناول اليوم على الغداء؟"

كم أكره هذه الحالات التي لا أستسيغ مصادفتها، بل أرميها في ملعب المؤامرة، المؤامرة التي طالما شارك فيها هذا الصاحب نفسه عندما كنا تلاميذاً على مقعدين متجاورين، ينام هو مرخياً فكيه على المقعد، فيخاله المدرسون يتحدث معي بصوت شخيره المتقطع، أو يسرق ورقة امتحاني لينسخ ما فيها أو ليشطب اسمي ويضع اسمه بدلاً منه، وفي كل مرة أقع في فخ مؤامرة الكبار الذين لا يصدقون براءتي بل ذكاءه.

من حسن حظي أنه لم يكمل دراسته للجامعة مستفيداً من وضعه المادي الذي جعله تاجراً ماهراً خبيثاً، يسرق زبائنه كما يسرق الكرى أحلام اليقظة الجميلة.

في السوق بحثت عن بطاطا أرخص ثمناً، فوجدتها بحبيبات صغيرة والبائع يصيح: " بطاطا يا أبو العيلة، بطاطا."

- هات كيلو بطاطا إذا سمحت.

نظر البائع بخبث على قيافتي وهندامي وحذائي الملمع حديثاً، فاقسم بأعظم الأيمان:

- لا والله يا أستاذ، كيلو واحد؟ عيب، خذ ثلاثاً بسعر اثنين ونصف، والرزق على الله، لن تجد مثل هذه البطاطا بالسوق كله.

وأخذ يضع حبيبات البطاطا كيفما اتفق في كيس أسود، وناولني إياه قبل أن استجمع حروف جوابي ورفضي قائلاً:

"خمسون ليرة فقط يا أستاذ، شرفت المحل والله."

قلت لنفسي: "طارت أوقية اللحمة يا أستاذ، ولكن الربح معنا، كلُّه بطاطا، وسوسو تحب البطاطا الصغيرة، ربما تحبها أكثر من الكبيرة، ستلعب بها أثناء تقشير أمها لها، بالتأكيد ستنفجر صيحات الغضب على من زرع البطاطا الصغيرة وعلى من باعها وعلى من...، لا، البطاطا الصغيرةً سلقاً أطيب، سآخذ بعض البصل اليابس، وتصبح أكلة أيام عز العزوبية."

مؤامرة التاجر تحيك خيوطها حولي دوماً، هل كنت لأفك مثل هذه الخيوط لو درست التجارة والاقتصاد بدل اللغة الانجليزية! أشك بذلك.

- بندورة أستاذ، خيار! انظر عندي كله رخيص وللعيلة.
- هات كيلو بصل يابس، وكيلو بندورة وكيلو خيار.

- أستاذ! هل أنت جديد في هذا البلد؟ من يشتري بالكيلو هذه الأيام؟ خاصة والأسعار ما شاء الله، تراب! هيا لن تكون إلا مسروراً، خذ على كيفي وأعطني على كيفك.
- لا يا أخي أرجوك، نحن عائلة صغيرة، وأنا أحب التسوق يومياً خضروات طازجة.
- والله يا أستاذ أنت رجل محترم ودخلت قلبي، اليوم ببلاش، والله ببلاش، خذ ولا تندم. يا سيدي اثنين بصل، اثنين ونصف بندورة واثنين ونصف خيار، مئة ليرة فقط، لن تجد مثل أسعاري أبداً في السوق، وهذه الأسعار لك وحدك، أقسم بالله.

ناولته الورقة المالية الوحيدة وتفقدت جيبي، بعض الليرات، تكفي أجرة السرفيس للعودة، قلت لنفسي:

"الحقيقة تقول: راحت اللحمة وراح اللبن أيضاً يا ولد!"

راتب واحد في البيت يعني الدمار، يتهم هؤلاء الأشرار الموظف بالثراء، وهم سبب تعتيره وفقره، يسرقون اللقمة من فيك، ولا ينسون ذكر الله لحظة، كأنهم يريدون صك براءتهم وعفة عواطفهم الخبيثة.

يلح قربي الصغار والكبار بالسؤال: "كيس لأغراضك أستاذ، كيس بعشرة فقط، هل تريد أن أحمل لك الأغراض للسيارة أستاذ؟، تكسي أستاذ؟ إلى أين أستاذ؟ اليوم ببلاش أستاذ."

ويمر قربي السرفيس تلو الآخر، ولا يقف واحد منهم، الأكياس الكثيرة تخبرهم أن السرفيس ليس مناسباً، بعد قليل توقفت سيارة سرفيس ميكرو باص فارغة، وقبل أن أفتح الباب سأل السائق: " طلب أستاذ؟" وضحك ساخراً وراح.

معك ليرة تساوي ليرة، أنا أملك – والملك لله وللدائنين – أجرة سرفيس وربما أكثر، إذن قيمتي ستنتهي بعد نفاذ ما بجيوبي بعد دقائق إن وفقت بسيارة سرفيس.

دسست يديَّ، تبحثان في جيوب السترة الجلدية والبنطال أعد ما فيها من ليرات، يا للفرحة، تكفي لتاكسي تعمل على التسعيرة!

الوصول إلى كوالالمبور

توقف عقرب الدقائق عند الدقيقة الخمسين بعد الثامنة صباحاً بتوقيت الرياض. مع توقف الطائرة وهي من طيران الخليج في مطار كوالالمبور عاصمة ماليزيا التي أزورها للمرة الأولى.

كانت الرحلة هذه قد انطلقت من مطار المنامة في البحرين في الساعة الحادية عشر والنصف قبل منتصف ليل البارحة أي قبل خمسة آلاف وستمئة كيلو مترا تعادل ثلاثة آلاف وخمس مئة ميل جوي، هي المسافة الفاصلة بين المطارين. وكنا قد هبطنا خلالها لخمسين دقيقة في مطار مسقط في سلطنة عُمان.

عندما فارقت الطائرة أجواء المحيط الهندي باتجاه البر الماليزي لم تحزن، ولم أحزن، فقد استقبلتنا الأرض ببحر أخضر اللون رائعه، وهو يمتد من الأفق إلى الأفق. غابات خضراء مقسمة إلى مربعات ومستطيلات، تفصل بعضها عن بعض سواقٍ وربما أنهار وطرقات أيضاً.

عندما انخفض ارتفاع الطائرة اقتربنا من قمم غابات النخيل، وجوز الهند والخيزران!

غابات في غاية الروعة والجمال، وقد انسحبت يتسلسل لوني بديع بين عتمة زرقة المحيط ورقة مياه الشاطئ وحسن اخضرار الأشجار وقد اتخذت تخطيطا لونيا

مختلف الشدة بتناسق وهندسة دقيقة لا تشوبها التواءات أو تشوهات لونية أو خطية. لله در هذا الجمال!

قبيل الهبوط من الطائرة كُسرَ مصادفة إطار نظارتيَّ، مما أحرجني عند تتبع الإرشادات الدلالية في المطار، فلصقتهما بلاصق مؤقت ريثما أجد الحل على الأرض!

في المطار صار التحديق عملي، وكثيراً ما خمنت طريقي، وأصبت الخيار، ربما الاعتياد والطبع غلب سيري في مطار رغم حجمه واتساعه الهائلين إلا أنني خلال دقائق قليلة وجدت نفسي في صالة المستقبلين.

كنت أود لقاء رفيق سفر في المطار ممن تعرفت عليهم في صالة انطلاق مدينة المنامة، لكنهم كانوا قد توزعوا على كوى تأشيرات الدخول، فأخذت مكانا في أحد الطوابير حتى وصل دوري.

سألني موظف الجمارك عن هدف زيارتي والمدة التي أرغب المكوث خلالها وعنوان الفندق المختار. وبعد حصوله على أجوبتي الدقيقة منحني تأشيرة دخول لمدة أسبوعين حسب طلبي. وهكذا انتهت إجراءات المطار خلال دقائق لم تتجاوز العشرين، هي المدة الفاصلة بين النزول من الطائرة والخروج من بوابة المطار، تذكرت خلالها الازدحام والفوضى في مطار دمشق حيث ضيق المكان وشدة الازدحام والفوضى أحياناً، لكنها تبقى أرض الوطن، ومهما رفعت إجراءات موظفيها ضغط الدم، يكشف هواء سورية كرب الغربة، فيكاد المرء يقبّل التراب حمدا لله على سلامة الرجوع إلى حضن الوطن الأم.

خرجت من المطار فاختلطت زرقة السماء الصافية باخضرار جانبي الطريق السريعة نحو كوالالمبور، كان البهاء يحيط بنا. بعد فترة توقف السائق بالسيارة ليدفع أجرة مروره فعرفت أن الطريق ملكية خاصة، وهذا ما دل عليه حسن سفلتتها والإشارات الإرشادية على جانبيها وكذلك ألوان خطوطها الصفراء والبيضاء النظيفة كأنها دهنت بالأمس القريب. قبل حاجز الجباية ذاك كانت الطريق قد تحولت إلى ساحة واسعة جداً تستوعب عشرات السيارات بل أكثر. وفي نهايتها التي تشكل قطر نصف دائرة مفلطحة قليلاً محدودبة من جهة القدوم بالطريق الذي يشبه الحبل السري. وفي النهاية كانت كوى الجباية وهي غالبا سبعة أو ربما أكثر بقليل، منها المخصص للسيارات الكبيرة والحافلات ومنها ما خصص للسيارات الأصغر فالأصغر، وهكذا تخفف السيارة سرعتها حتى الصفر تقريبا عند الكوة، حيث يناول السائق قيمة نقدية مقابل إيصال صغير أو يريه بطاقة مسبوقة الدفع عليها دلالة الشركة مالكة الحق باستثمار هذه الطريق. فلا ازدحام ولا انتظار، بل يسر وسهولة وأريحية أرجو أن يقرأها منظمو الحواجز الأمنية في بلادنا.

لفت انتباهي سير السيارات على يسار الطريق على الطريقة الانجليزية وكذلك يكون مقعد السائق مخالفا لوضعه في نظامنا العربي، فالمقود قرب الباب الأيمن الأمامي للعربة وليس اليساري.

لاحظت أمراً آخر وهو جدة السيارات الذاهبة والآتية وهذا يشير إلى ثراء هذا البلد وكيف لا وهو من نمور آسيا التي أثبتت للعالم كله أن التقدم والتطور ليس حكراً على أوروبة وأمريكا الشمالية، بل لكل شعب يؤمن بالتقدم والتحرر من التخلف الاقتصادي فيسير خلف إدارة حكيمة للبلاد. وسأعرف مساء أو في

الغد الأسعار في الأسواق لتأكيد فكرتي هذه، فالمؤتمر الذي أنا قاصده سيفتتح يوم بعد غد، أي سيكون يوم الغد يوم تعرف وراحة واستمتاع في بلد أحببت نهضته السريعة عمرانياً وتقنياً رغم الحصار الاقتصادي الذي حاول تدميره قبل عقد من الزمن.

شوق العربية

بعد وصولنا إلى مطار دبي، اكتشف رفيق السفر أن حقيبة سفره مفقودة، وأنه علي أن أساعده في العثور عليها.

كانت فرحتي العارمة بالوصول إلى بلد عربي قد أُخمدت بعد أول تحية ألقيتها لأحد موظفي الاستقبال السمر في المطار.

حييته بلهفة العائد إلى وطنه، الراغب باحتضان كل آدمي أمامه:

- السلام عليكم.

نظر بسرعة وأشار بيده نحو اليمين البعيد دون أن يرد التحية وقال بالإنجليزية:

- يمكنك مراجعة المكتب ذاك، فهو يهتم بطائرتكم.

لم أسأله ولم يتح إلا مجال غضبي الشديد، لاستقباله الفج أولاً وللمفاجأة اللغوية ثانياً، إذ أنني لم أتوقع أن أتكلم بغير العربية في بلد عربي!

ذهبت إلى الركن البعيد فوجدت وجوهاً آسيوية تحتل جميع الشواغر.

استلمت منهم بطاقة ملأتها بالإنجليزية بمواصفات حقيبة سفر صديقي، ووعدنا خيراً بأن الحقيبة ستكون على أول طائرة قادمة من هونغ كونغ.

ساعدتنا مندوبة شركة الكاثي باسيفيك بتأمين تأشيرة دخول ترانزيت ليوم واحد فقط ريثما تنطلق أول طائرة باتجاه وجهتنا الأخيرة، دمشق. كما تم تأمين منامة ليلة واحدة في فندق وسط دبي.

في السيارة إلى الفندق تجاذبنا النكات حول جنسية السائق وصدق حدسنا بعد وضعه أغان هندية في آلة تسجيل السيارة.

لم نكن نعرف وجهتنا المبرمجة مع مندوبة شركة الطيران إلا عندما توقفت السيارة أمام بهو بوابة الفندق.

موظفو الاستقبال هنود، العاملون جميعاً من الجنسية الهندية، فكان أملنا الوحيد أن يكون الطعام على الأقل عربياً!

في مطعم الفندق كانت قائمة الطعام مكتوبة باللغتين العربية والانجليزية بخلاف جميع اللوحات والرسومات الهندية الطابع والأصل.

وهكذا أجمعنا على الدجاج المشوي على الفحم! وتوابعه العربية التي لم تخلُ من بهارات صفراء وحمراء تفوح منها دولة الباهاراتا.

في دبي الشديدة الرطوبة والحرارة كنا الوحيدين تقريبا الذين يمشون نهاراً في تلك الشوارع شبه الخالية.

دخلنا أحد محلات الالكترونيات وألعاب الأطفال لشراء بعض الهدايا فسمعنا الرجل الطاعن بالسن ينادي ابنه بالعربية وينصحه لمرافقتنا ومساعدتنا بانتقاء ما نرغب.

هنا نسيت أمر الهدايا، فقد سمعت من يتكلم العربية فهرعت إليه وقلت له:

- نحن هنا منذ الأمس ولم نلتق بأي عربي نتكلم معه لغة الآباء والأجداد، خاصة وأننا عائدون من شرق آسيا حيث الانجليزية قد لا تجدي نفعاً في الأسواق.

هز رأسه قليلاً وهو يعقد بين حاجبيه وكأنه سيصرح بحكمة عليَّ الانتباه لها، ثم قال:

- في الحقيقة أنا هندي، لكنني أجيد العربية لأنني أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثين سنة، وهذا ابني ولد هنا أيضاً.

بحر العرب

من يستدعي الآخر؟ اللحظة أم آلام الذكريات!

سأله معلم الصف السادس الابتدائي:

- ما هو حلمك عندما تصبح كبيراً؟

اتسعت الدنيا، وفي كرة زجاجية في راحة طفلٍ لمعت تباشير حلم جميل، فرأى القارات الخمس وخارطتها ما تزال في ذهن ابن الثانية عشرة. بعد درس الجغرافيا.

أجاب:

- السفر عبر العالم بالطائرة.

نظر المعلم الأسمر الطويل في ثياب الطفل شبه البالية، فرأى الفقر المدقع يقطر من أكمامه الواسعة، وتمعن في عراك قدمين مع حصى الطريق وترابها فرأى ما كان يدعى حذاءً مطاطياً أسودَ اللون يوماً.

تباعدت ضفة شفته العليا يساراً. نظر بنصف عينٍ حانقةٍ نحو الشعر الممشط نحو جانب واحد وقد تساقطت بضع قشور بيضاء منه على الكتفين النحيلتين، وقال مخاطباً بقية الطلاب دون أن يرفع عينيه عن الكتلة البشرية الصغيرة تحت ناظريه المشوشين بكثيف شعر حاجبيه:

- زميلكم يحب أن يجول العالم بالطائرة انطلاقاً من هذه القرية البائسة النائية، ما رأيكم؟

ضحك الطلاب، وترددت تعليقات بعضهم حول أذنيه.

- ليس لديه ما يشبع بطنه، كيف يحلم أحلاماً بورجوازية!
- ليستر جسمه النحيل أولاً، فالشتاء بارد، والثلج في الخارج لا يرحم صقيعه.

سأل المعلم باستهجان قليلاً:

- لماذا لا تسافر بالسيارة؟ فهي أقل تكلفة!

تجاهل الطفل أصوات زملائه وسخرية معلمه وقال كالحالم من جديد ولكن بنبرة فيها ثقة وتحدٍّ:

- لقد سألتني وأحلامي تجيبك، أحلم بالسفر بالسيارة من الدار البيضاء في المغرب حتى مسقط وعمان في المشرق العربي.

استشعر المعلم حب الطفل لبلاد العرب فصفق بيديه مبتسماً وكذا فعل الطلاب جميعاً.

وفوق بحر العرب يسترجع المهندس الشاب وهو رجل أعمال ذكريات طالما وخزت أعصابه.

نظر من خلال زجاج نافذة الطائرة الصاعدة من مطار مسقط شرقاً فرأى الأسطول السابع الأمريكي منتشراً على بوابة الخليج العربي يصب جام غضبه على تراب العراق على الطرف الآخر البعيد شمال الخليج.

تمنى لو يمتلك ما يرميه فيدمر بوارج الغطرسة والنفوذ، أمنية طفولية مزجها حقد الدول الكبرى على مصائر فقراء البشر.

الدموع ما تزال كبيرة في عينيه، وهو يعصر ذكرياته الأليمة ورؤاه وواقع حاله.

وصرخ من الأعماق صوت ينادي:

"أستاذ وجيه! أستاذي الذي أحببت، ها أنا ذا أحقق حلماً سخرتَ منه يوماً، تعال وانظر بنفسك، لكنك ما تزال هناك في ذات الدائرة التي تركتك فيها قبل ثلاثين سنة، عند انطلاق رحلتي حول العالم، والله أَحْمَدُ لا سواه، على التوفيق الدائم الذي أراه."

قطرات المطر

كان الزحام شديداً في ردهة المدرسة، لم يقرع جرس الدخول بعد، والمطر الربيعي الشديد بأمر الحب جمع الفتيان والفتيات بأجساد متلاصقة، في البهو.

أحبها، نعم أحبها، لكن لم أرد ملاصقتها فمنظر حبيبات المطر التي مازالت تنهمر عن السيدارة، وما ظهر من شعرها كان يأخذني بعيداً عن الصخب والثرثرة حولنا، ويربّعني على عرش خيال لم أنزل عنه حتى الآن.

قلبي الذي كان وحيداً يخفق بسرعة حباً، أما قلبها فكان يخفق من تعب الركض تحت المطر فقط.

قطرات المطر التي نفختها في فضائي عن وجنتيها المحمرتين تورداً ما تزال هي الأخرى تحتل نبضي ويرتعش بنقائها كياني.

- أحبكِ.

قالت بسرعة:

- أحبكَ أخاً كبيراً!

قالت عيناها بعد عمر مديد:

- ....

لا أذكر ماذا قالت!

لكنه أجابها الوجيب:

- ....

لا أذكر ماذا أجاب.

وتابعنا حديث الطقس الحار، وحبيبات العرق تتفصد عن ذات الجبين الذي ترقرقت عليه يوماً قطيرات المطر.

ضيوف

- طالق! طالق! طالق!

كلمة واحدة رددها الممثل منهياً بها حياته الزوجية ومشرداً أبناءً وجدوا أنفسهم فجأة في ضياع دائم.

ساد الوجوم والحزن وجوه نزلاء الفندق المتابعين المسلسل المحلي بعيون تلاحق أدق تفصيلات الصور التلفزيونية المتتابعة والمتسارعة الأحداث.

لم يشعروا بانضمامي إليهم في تلك الصالة الضيقة التي ضمت بضع أرائك قديمة وكراسي خيزران مضعضعة يمتطيها شبان يبدو أنهم من الريف البدوي. على الجدران كانت تتوزع لوحات معظمها ضم آيات قرآنية كريمة بخطوط مذهبة الخيطان، أكبرها كانت آية الكرسي التي احتلت جداراً اختص لها.

لم تشدني الشاشة الصغيرة بقدر ما أثار انتباهي متابعو تفاصيلها باهتمام وتفاعل جسدي كبيرين. فهذا الشيخ الأعرابي يمسد كرشه المندلق أمامه تارة ويمسد شاربيه الكثين تارة أخرى وهو يبتسم مخاطباً نفسه أن قضية الطلاق هذه باطلة بطلان محاولة راكان الطلاق من نعيمة بعد اتهام ابن عمه لها بالفسوق، لكنه لم يسمح بتمرير الطلاق حتى يتأكد من مصداقية ابن العمر المتهور والفاشل، وفعلاً، ها

هي الأحداث تتشابه إلى حد التطابق، فابن العم كذاب وقد نجا الزوجان من تهمة باطلة حاكها السيئون كما يفعل ذاك الأشقر بعيون زرقاء في المسلسل.

تساءل الشيخ:

"هل سمع التلفزيون بقصة راكان ونعيمة فصور هذا المسلسل على شاكلتها ليحكي للبشر حكمتي كشيخ القبيلة؟"

لكن لاحظ عدم وجود شيخ أو قبيلة أو بادية في المسلسل الحضري، فتململ وقال لجميع المنشغلين عنه:

"قصة معروفة تجري في أي مكان وزمان، بسيطة."

على كرسي خشبي جانبي جلس رجل في الأربعينات من عمره، عريض المنكبين، باسم الوجه، براق العينين، طويل الشاربين، فاحم الشعر المسرح حول رأسه الكروي نحو الخلف، كان يسترق النظر نحوي كلما سنحت له الفرصة وكأنه يريد الحديث معي لولا خشية إزعاج انسجام الآخرين مع المسلسل الصاخب. وكنت أتجاهله مراقباً جاره الذي يصارع ذبابة وقحة تنتقل بين أنفه وأذنه ولا يبعدها كفه إلا لترجع بعد لحظات وكأنها تنبهه لضرورة ما، أو تريد العبث بشامة حمراء صغيرة قرب أنفه ربما ظنت أنها بقعة دم لذيذة!

عندما شرعت بفك لغز تشابك خطوط الآية القرآنية على جدار جانبي، وجدت الأخ المراقب قد وضع كرسيه أمامي مباشرة وهو يهتف شبه متأكد من حدسه:

- خالد، لا تقل لي أنك لست خالداً.

أبعدت رأسي عن وجهه الملتصق به وقلت له:

- اسمي خالد صحيح، ولست خالداً بالطبع، فأي خالد تبحث عنه؟
- خالد المهجع الخالد بخالد.

هنا عادت بي الذاكرة إلى زمن الخدمة العسكرية ودورة الأغرار حيث أطلقوا على المهجع اسمي لبقائي فيه مدة طويلة دون الآخرين، لكن لم أستطع تذكر اسم هذا الرجل.

- هو أنا فعلاً.
- وأنا سليم الدعاس، سليم الدعاس يا رجل؟ صاحب الأرقام القياسية بالعقوبات الجسدية.
- أبو سلمو؟
- نعم أبو سلمو.
- الآن تذكرتك يا كبير البطن، تعال أضمك إلى صدري تعال قبل أن تنفذ الواجب اليومي من عقوباتك، وإلا سكبت عليك قصعة الحساء.

وضحكنا فرحاً فالتفت جميع الحضور نحونا ناسين المسلسل لدقائق عادوا بعدها لمتابعته حين بدأنا نسرد ذكريات ذلك الشتاء القارس في "الباردة" والذي تحول الآن إلى دفءٍ وحب وذكريات مرها حلو وحلوها عذب.

انتقلنا إلى غرفتي ذات السريرين فتمدد كل على سرير ينثر حكاية هنا وقصة هناك، فتداعت الأسماء والأحداث قصاصات ملونة لم نستطع لمها كلها في ذلك الوقت

اليسير. سألته عن حاضره وماذا يفعل في الفندق وهو ابن العاصمة أباً عن جد! فتنهد بعمق وقال بحسرة:

- أبا أحمد، يا أبا أحمد. ماذا أقول وماذا أروي، فهذا الفندق فندقي مذ تزوجت، نزلاؤه الدائمون أصدقائي ومالكوه أصحابي.
- إذن أنت شريك برأسماله أيها المتخفي في ثياب البؤس، مبارك هذا الإنجاز المادي العظيم، لو كنت أعلم ذلك لأصبحت نزيلاً دائما هنا. اسمع أيها العسكري الطيب، سأنام اليوم مجاناً لديك.
- خاب ظنك يا صديقي.
- هل تراجعت عن الملكية من أجل بضعة دراهم أيها الكريم يوماً!
- كلا يا صديقي، مسكنك في العين وليس في الفندق.
- سوف تدعوني إلى المنزل إذن؟
- إنه بيت القصيد، منزلي يا صاحبي صار فندقاً لأقاربنا ومعارفنا من الريفيين القريب والبعيد، يأتي الضيف لأيام عديدة، يستخدم ثيابك وسريرك وقوت أطفالك ويفرض عليك عاداته الشخصية. لذلك أهرب منه للمبيت هنا أو لقضاء الليل أو بعضه بعيداً عن مستعمري بيتي من أقاربي وأقارب زوجتي.

توقفت عن الهزل إذ لاحظت الحزن والهم يزدادان مع كل شكوى من صاحبي الذي عرفناه طيب القلب. فصمتُّ لأمنحه فرصة تنظيف أعصابه مما علق بها من هموم.

- هل نمت؟

- لا، أنصت للتراجيديا.
- هل أطفئ النور؟
- كما تشاء.

أطفأ ضوء المصباح الكهربائي فشعرت براحة أكبر وكان تعب اليوم قد شرع يشملني بضبابه حتى تراخيت مستسلماً لخدر غريب.

عندما فتحت عينَّي كان نور الصباح يطل من النافذة يراقب تمددي فوق الغطاء بشكل مائل، السرير المقابل كان مرتباً بشكل جيد، فعرفت أنني صرت وحيداً وعلي استكمال راحتي بالنوم الهادئ ساعة أو اثنتين فالوقت مبكر جداً للخروج من الفندق.

في لحظة ما فتحت عينيَّ لأرى الدوائر الملونة التي أودعتها شمس الفجر قد تحولت إلى رمادية وسوداء، سرعان ما ظهر منها جارنا الغليظ في القرية وقد جاء لعمل له في العاصمة، فأحب —كما قال — التشرف بزيارتي وأنا من ادعى صداقتي الحميمة له منذ الطفولة، ولما كان الوقت بداية الشهر والراتب طازج فقد دعوته للغداء في مطعم مجاور فخم، أعجبه جداً وامتدح طعامه، فصار يدعوني لتناول الغداء فيه كل يوم، والدفع على حسابي بالطبع، ليلا صار يأتي مخموراُ ينادي بأعلى صوته الجيران النائمين بأسمائهم البسيطة ليلقي عليهم تحية (تصبحون على خير) بشكل متقطع، ثم يخبط على الباب بقوة وهو ينادي باسمي.

امتعضت زوجتي وقالت:

– لا شك أن زجاجات البيرة ولوازم السهرة تشغل يديه فلا يستطيع الإمساك بمقبض الباب أو دس المفتاح فيه، أو ربما خجل من نفسه واشترى فرشاة أسنان تخصه بدلا من فرشاة أسنانك.

قالت ذلك وارتدت ثوبا فضفاضا وخرجت لتفتح له الباب وقبل أن تستر جسدها كان الباب قد فتح بقوة ودخل صاحبنا مترنحاً يكاد يسقط على زوجتي، فقفزت نحوه وفي يدي منفضة السجائر الزجاجية الثقيلة أهدده بها.

- ما بك يا رجل؟ استيقظ جميع من في الفندق على صراخي وأنت لم تفق؟ لم أعرف نومك ثقيلا لهذه الدرجةّ، هيا اغسل وجهك لنتناول الطعام الشهي وقد أعدته أختك أم سلمو!

1992/11/13

جارتنا

جارتنا ليست ككل الجارات وإن تنافسن معها في بعض مواهبها.

كانت فتاة ريفية جاهلة كما اعترفت ذات يوم، ولما تزوجت "أستاذاً" من أهل المدينة صارت مثقفة، ليس بسبب التلفزيون الذي يلقِّن الثقافة تلقيناً، ولكن بفطنة دفينة ظهرت يوم ولجت دار الزوج "المتمدن" كما ظنت قبل تجاوزها له في سلم الرقي.

كانت تردد دوماً وهي تصرح لجميع الجارات:

"لم يكن متمدناً جداً عندما تزوجته بل كان معلماً بسيطاً مسكيناً."

وبما أن الحكمة تقول: "الفطنة تولد النوال" فقد استنفذت جارتنا من خبرة خمس سنوات في الحياة المدنية خلاصة أولى غيرت بها اسمها، فصار "نوال" بدلاً من "صبحة" الاسم الريفي القديم الذي لا يصلح لابنة مدينة راقية.

أما عنوانها السابق فقد نقلته إلى "المدينة" التي تتبع لها قريتها النائية.

خلال السنوات الخمسة الأولى لسكناها المدينة صار لجارتنا لغة جديدة، أو كما كانت تقول "لساناً" جديداً، إنه لسان أهل المدينة.

إنها المدينة، نعم المدينة، الثورة الحقيقية التي غيرت إهاب جارتنا، وجعلتها نجمة الحي، فهي الفيلسوفة والصحفية، والحكيمة. وحينما بلغت الخمسين وبعد رحلة الحج التي دامت شهراً كاملاً صارت جارتنا شيخة ذات سبحة بتسع وتسعين حبة، تفتي بما يخص النساء، وعند الضرورة بما يفيدهن من أمر الرجال!

أبها 18-01-2004

وحـــدة

لم يجرؤ على النظر نحو الأعلى، كانت نيازك النار تتساقط على بصقيع القلب.

التحف شتات ذكرى حب أليم، والتهم بعض الأدوية.

كانت السماء تمطر كالعادة دماءً وعبرات وضحكات ذات رعود مجلجلة.

تماماً كما الأحشاء!

تقوقع، سخر من خياله فتمطى ليتقلص فجأة على نصال الجوف اللئيمة.

قال لنفسه:

"لو كانت الروح في الأحشاء فعلاً لتمزقت منذ أمد!"

وضحك على دموع لا تستطيع إطفاء لهيب شمعة في معدة! أو ترطب عصبوناً حرَّقته ذكرى الآن، أو آلام رؤى متجمدة!

طرقات الباب لم تنم عن حبيب، كانت العاصفة ما تزال ضيف اللا رحمة.

دخلت قبل سماع الجواب، بعثرت بعض الهموم بهوجائها، والتفتت عليه كزوجة أب تدعي الأمومة!

تفصد العرق من جبينه فنزع عنه لحاف الحقيقة، وظهرت على الفراش بقعة حمراء كبيرة.

دلْفُ السقف صيَّرها وردية، فهو يحب الورد.

صارت بلون الزهور، وهو يحب الأزهار.

صارت صفراء، وهو يغير على الوطن.

رائحة الورد الذابل مثل رائحة هذا الزمان.

حاول استذكار شباب الزهور فلم يفلح.

افترش اللحاف المهترئ، ثم تدثر بنجوم تناثرت عليه حمى تفصدت كساء لا يزول.

ألوان

تحسَّسَ مفتاحَ السيارة في جيبه وهو يخرجُ من باب المنزل. كان المفتاحُ دافئاً بعكس حرارة الجوّ في الخارج. ها هو الشتاءُ قد انتصفَ وما تزالُ السحبُ تمرُّ فوق البلاد مرورَ الكرام، الصقيعُ الشديدُ جعلَ مِقبضَ باب السيارة يكادُ يلتصقُ بيده الممتدةِ لفتحِ الباب بعصبيةٍ لازمتْهُ منذ بضعةِ أشهرٍ، اكتسحتْ قشعريرةٌ مفاجئةٌ أوصالَه فشعرَ أنَّ جسدَه النحيلَ يكاد يضيعُ في فُسحةِ مقعدِه الصوفيّ الواسعِ خلفَ المقودِ المدورِ كالحلقاتِ المفرغةِ التي تحيطُ به يومياً، ولا تلفِظُه قبل إعيائه. إلى أين يذهبُ في مثل هذا الصباح الثلجي؟ أليس دفءُ الفِراش أفضلَ!

شخرت السيارةُ بحدةٍ وكأنَّها تذكّرُه أنَّ موعدَ الاستيقاظِ لم يحنْ بعدُ. أدارَ المفتاحَ ثانيةً، لكنَّ الشخيرَ ازداد حدةً.

همس لنفسه: " ليس من عادتها" لكن المحرّك لم يشتغلْ بسهولةٍ.

" أف! ما هذا الصباح المكدّر! لا النومُ يأتي، ولا البيتُ يتسعُ، ولا السيارةُ تعملُ؟"

في المرَّةِ الرابعة دار المحرك قليلاً وقبل أن يهدأ غير رأيه واستمر بالدوران راضخاً لمشيئة فرضت عليه، فتحول صوتُه إلى العادي خلال لحظاتٍ إثر معالجة حكيمة من قائد متمرس ما زال يتململ على مقعده وهو يعيد ترتيب الغترة وكأنه يشغل نفسه عن أمر لا يريد التفكير به.

كان زجاج السيارة مغطى بطبقة من الندى الكثيف حالت دون رؤيةِ ما يحيطُ بها، تذكر صباحاتِ الذَّهاب إلى الجامعةِ حين كان يهرعُ إلى مسْح زُجاجِ السيارة من الخارج فورَ اشتعال المحرّك، أما الآن فالأمرُ قد اختلفَ، وكأن برودةَ السيارة سمَّرتْهُ في مكانه أو أنَّ هدفَ مسيرِه لم يشجعْه للمبادرةِ والسرعة غير الملحَّةِ.

عقارب الساعة لم تعد تعني له الكثير. ضجيجُ الطلبة المرحُ عند بوابة الجامعة صار ذكرى حبيبةً من الماضي، وفرحةُ التخرُّجِ باتتْ باهتةً رغم انقضاء عام واحدٍ فقط عليها.

نظر بلا معنى إلى الصُّحفِ التي تغطي المقعدَ المجاورَ، ثمَّةَ دوائر حمراء تحيط بإعلاناتِ توظيفٍ على بعض صفحاتها، تنهَّدَ بعمقٍ، إذ رأى اللونَ الأحمرَ أخضرَ، وما الفرق؟ صارت الألوان كلها رمادية لديه، لا فرق بين أحمر أو أخضر أو أزرق، لا هذا يثير ولا ذاك يهدئ الأعصاب، وأخشى ما يخشاه أن يخلط بين ألوان إشارات المرور الضوئية.

بعضُ الدفء تسلَّل إليه بعد أن لاحظ مؤشر الحرارة يرتفع إلى الوضع الطبيعي، فشغَّل مدفأةَ الزجاج الأماميّ مستعداً للانطلاق.

"بسم الله" وتحركت السيارة به تقوده في شوارع المدينة كحمار يعرف مساره اليومي، فأراح صاحبه من ضرورات الإلحاح عليه عند كل منعطف أو سلوك طريق صاعدة أو هابطة.

"ليس لديك خبرة يا أستاذ، ونحن كما ترى في شركة إنتاجية، نقدر اندفاعك للعمل وحبك للوطن، لكننا آسفون جداً، فتش! قد تجد فرصة عمل جيدة في مكان آخر."

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يرتمي على مقعد سيارته كدجاجة رماها ذابحها بعد أن استخلص منها معظمَ دمها وقوة أعصابها، فلم تعدْ تملك قوةَ الحركة.

بدت يده ثقيلة جداً وهو يحاول رفعها ليدير محرك السيارة التي كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر.

دار المحرك بقوة وكأنه يقول له: "هيا، ابحث عن رزقك في مكان آخر يليق بك!"

حول دوار "ساحة القصبة" بدأ النشاطُ يدبُّ كشريان في قلب المدينة تسري فيه الدماء تعلن حياة يوم جديد، الحركة تزداد شيئاً فشيئاً، هؤلاء جميعاً ذاهبون إلى العمل، لكل منهم مورد رزق ثابت يسعى إليه، مشاة يمشون وسيارات تسير، يبدو أنَّ الجميعَ في اتجاه واحد تقريباً، نحو مكان واحد!

"لماذا لا أسير معهم، بوجهتهم، فقد أجد عملاً كما وجدوا؟"

الإشارة الحمراء عبست بوجهه، توقف، التفت حوله، كان وحيداً، فرتل السيارات قد تجاوزه راحلاً نحو عمق المدينة، وخلال لحظات غاب عن نظره.

أصفر، أخضر، ها هو يدور حول نفسه في هذه الساحة الواسعة، يتذكر طفولته، عندما كان يركض حول هذا البناء القديم يمني الطراز، الذي يتوسط الميدان، لم يكن يفكر آنذاك أنَّه قد يدور حول ذات البناء، بسيارته، دون هدى، وكأنه يدور حول فراغ.

شرطي المرور نبهه وحثه لضرورة اتخاذ شارع ما يتجه فيه بدلا من اللعب وإثارة السيارات النظامية المستعجلة إلى مراميها المحددة.

اتخذ أخيراً يمينه سبيلاً وانساب في طريق مألوف عبرت فيه السيارة ببطء شديد أمام بوابة الجامعة، التفت بحسرة فاندفعت دمعة حارة على خده مودعة أختها

التي اختفت في الحلق، غصَّ بها في حين مسح بظاهر كفه ذلك الشيء العجيب الذي يسيل على خديه، وتابع في شوارع لا تنتهي.

مساءً كانت مجموعةٌ جديدة من الصحف أمامَه، وحولَ بعضِ إعلاناتها دوائرُ حمراءَ قانيةً.

ظهران الجنوب –السعودية

خيال علمي

لص البنوك

من مسدسه الكهرطيسي أطلق عدة رشقات من الموجات عالية الترددات نحو كاميرات المراقبة، فتعطلت وجميع الأجهزة المتصلة بها، كما توقفت عن العمل جميع أجهزة الحاسوب متأثرة بالطيف الكهرطيسي العابر أرجاء الصالة.

لم يقترب منه أيٌ من موظفي المصرف خوفاً بل فتحوا له أبواب الخزائن المعدنية الممتلئة بالأوراق النقدية. جال بنظره يتفقد المكان وهو يحرك ساعد نظارته الذهبي الأيمن بسبابته، ثم خرج بهدوء أمام ذهول الحضور جميعاً.

في الشارع كان رجال الشرطة يهرعون للدخول إلى المصرف، دون اكتراث به، فوقف يتفرج عليهم وهم يخرجون بمثل السرعة التي دخلوا بها بعد تأكدهم من عدم قيام جريمة سرقة. مع ابتعادهم دخل المصرف ليجد الموظفين والمراجعين نياماً في أماكنهم أو قربها. استعار بضعة أكياس وحشاها بالمال، ثم حرك بسبابته اليسرى ساعد نظارته الذهبية الآخر فاسترجع جميع البعوضات نانوية الحجم المنتشرة في المكان بعد أن لسعت الموجودين بالمادة المنومة، وسارع للخروج وهو يفكر بمصرف آخر في المدينة المجاورة.

فرعونان

- أبو ليلى؟
- من؟ أبو جنان؟ أين أنت يا رجل؟ هل ما زلت في هذه البلاد؟
- طبعاً يا صاحبي، من للفقير غير هذه البلاد؟
- إيه يا عم؟ عرفنا من يشتكي في آخر الزمان. هيا، هيا، أين أنت الآن، أودُّ الاجتماع معك اليوم، هل لديك مواعيد هامة؟
- لا، نلتقي مساء في مزرعتي الجديدة.
- حسناً، وحدنا في الغوطة إذن.
- أية غوطة يا رجل، قلت لك مزرعتي الجديدة، في الزبداني، مزرعة الغوطة صار عمرها سنتين. سأرسل لك سيارة تدلك على طريقها.
- حسناً في السابعة مساء.

حوار هاتفي مباشر جداً، وسريع، شأنه شأن العلاقة بين الكبار، فالعواطف والتعاطف، أو المجاملات والملاطفات شأن الأغبياء فقط.

أنهى أبو جنان الاتصال وسارع إلى غرفة الاجتماعات المخصصة للأعمال السرية، تفقد كاميرات المراقبة وجاهزيتها، جربها بنفسه مرة إضافية ليتأكد من توصيلاتها وعدم تمكن أبو ليلى الحذق والماكر الشكاك من كشفها. بعد تأكده من سلامة

عمله، توجه نحو المطبخ ليطلب من الصبايا تحضير السمك واللحوم ومتطلبات العشاء الخاص.

كان الرجلان في يوم من الأيام شابين على مقعد دراسي واحد، أحدهما ابن مدير المدرسة والآخر ابن تاجر معروف. شاءت مخططات الأبوين أن يشترك الطالبان في جميع وظائفهما المدرسية وغير المدرسية معاً، فكانت الألفة رابطة بينهما شديدة بقدر ما كانت الثقة محط شك.

فقد فهم الطالبان الذكيان مخططات والديهما القائمة على مبدأ أثبت مع الأيام قوته، الذكاء والمال أساس النفوذ والسلطة. واستطاع الولدان اللعب على وتر الوالدين مرة للتسلية وأخرى للتحدي، حتى وصل بهما الأمر لتسلم مناصب حساسة أفاقا ففوجئا بها وقد صارت حقيقة لعبتهما الذكية!

لم يكن الوصول إلى مقاعد الجامعة صعباً، فقد سخرت من أجلها دوراتٌ منظمة ووساطات المربي المدير وأموال التاجر صاحب العقارات هنا وهناك، حتى صار حلم الوالدين حقيقة، شاهداها برعب وذهول، قبل وفاتهما بحادث سير مفاجئ.

دقت أجراس الحراسة، ووصل الوفد المؤلَّف من سيارات الضيف والمضيف التي بقيت إلا واحدة في الطرف البعيد من الفيلا. ترجل أبو ليلى من سيارته الفخمة والمصفحة، وأشار للسائق بالابتعاد نحو باقي السيارات وصافح بالذراعين الممدودتين صدراً لصدر أبا جنان.

- مبارك، مبارك. من أين لك هذا يا هذا؟
- من مال أبي، رحم الله أباك. اسأل نفسك أولاً.

- من علاقات أبي، رحم الله أباك.

وضحك الصديقان وهما يرددان:

"قال: من أين لك هذا، قال!"

جال الرجلان في بعض ردهات الفيلا، وهما يناقشان الديكور والتصميمات الهندسية الأوروبية حتى وصلا إلى شرفة تطل على مسبح صغير، تسبح فيه بعض الصبايا الصغيرات بالسن. قال المضيف أبو جنان:

- لنشرب كأس شراب بارد هنا قبل الدخول، لدي صفقة أريد رأيك فيها، لكن بعد جرعة نظر، يا أبا النظر.
- كنت وما زلت أقول: أنت أبو النظر.

وضحك الرجلان بمجون ظاهر لم يقطعاه عندما تقدمت فتاتان شبه عاريتين بصينية شراب المارتيني الممزوج بالزنجبيل.

لم يمض الوقت طويلاً قبل دخولهما صالة الجد، لم تأخذ مقدمة أبي جنان وقتاً طويلاً، فلا مقدمات بين الرجلين في العادة، لكن أبا ليلى الضيف فاجأ مضيفه قائلاً:

- هل أحضرت معك أجهزة تنصت من المانيا مؤخراً؟

امتقع وجه أبو جنان لظنه أن صديقه قد كشف للتو أجهزته، ولكن قبل أن يرد، فوجئ بصفعة صديقه على كتفه مازحاً:

- كشفتك أيها اللعين؟ هيا، هيا، كنت أمازحك، أين سأجلس؟ هنا مناسب لكاميراتك؟

جلس أبو ليلى في مكان اختاره بنفسه. دون النظر بوجه صديقه الذي لم يعد للونه الطبيعي بعد، لكنه لم يكتشف تأثير مزاحه المشبوه، ربما بسبب الزنجبيل الذي يمقته، ولا يريد كشف كراهيته هذه، كيلا تؤخذ نقطة ضعف عنده.

لم يكن الضيف بلا أجهزة تجسس حقيقية وحديثة جداً، يصعب اكتشافها، وكانت على شكل رقائق الكترونية، دقيقة جداً على شكل جوهرة ملتصقة على دبوس ربطة العنق، وكان حريصاً في هذه الزيارة على الأقل عدم الاقتراب وملاطفة الصبايا كعادته خشية أن تعبث إحداهن بالدبوس فتغطي عدسة آلة التصوير ببصمة يدها أو بشيء آخر رطب أو لزج.

يعرف كلاهما أن لا أمان ولا ثقة في شأن تبييض الأموال والفساد الفاضح الذي يمارسانه معاً وباتفاق قديم قدم علاقتهما، لذلك كانت التسجيلات المتبادلة رغم عدم الإفصاح عنها موجودة بينهما ففي خزنة كل منهما عشرات أشرطة المايكرو فيلم القديمة والشرائح الالكترونية الدقيقة الحديثة للفضائح شبه المشتركة، ولعل توازن التورط كان سبباً في دوام تعاملهما معاً في الصفقات ذات الخصوصية العالية جداً.

اقترب أبو جنان وهمس بأذن أبي ليلى:

"سبع مئة مليون، ما رأيك؟"

اتخذ الرجلان هيئة الجد، كيف لا وهما في قاعة الأحاديث الخطيرة، والجدية المطلقة.

تراجع أبو ليلى في مقعده واتكأ على يمينه وهو ينهض ويعيد جلوسه المريح على الأريكة الجلدية البيضاء، بينما عيناه تحدقان بشيء ما غير موجود على الأرض، وحاجباه الممتطان في الخارج نحو الأعلى والمتقوستان في الوسط نحو الأنف الحاد حتى طرفه البعيد.

- تقصد مليار ليرة، رقم لا بأس به.
- لم أقل ليرة، بل دولاراً.

هنا تحول امتداد أبو ليلى إلى تقلص شديد فوقف وتوجه بجسمه جميعاً نحو أبا جنان وقال متلعثماً:

- مم.. م ماذا؟ سبع مئة مليون دولار يا ظالم؟ لا تقل لي، في الموضوع تهريب سوسو؟
- أسهل من تهريب ميمي، أليس كذلك، أنا شخصياً ضد المخدرات، لا أحبها يا رجل السلاح أفضل.
- تريد الحدود إذن؟
- أسبوع واحد فقط.
- فقط؟!
- فقط.
- والحصة؟
- كالعادة فيفتي، فيفتي.

- متى؟
- نبدأ بعد عشرة أيام، في الخامس من حزيران.
- في يوم النكسة؟
- ما زلت تذكر التاريخ.
- والجغرافيا أيضاً، أليس في عملنا نكسة؟
- تربيتك وطنية كما يبدو!

ضحكا ضحكة قصيرة، واكتفيا بهذا التصريح الكافي لإتمام الصفقة، فالتفاصيل شأن شخصي لا يتدخل به أحدهما، حسب اتفاقهما المبدئي، فالأرباح الخيالية ما زالت توقعهما في صدمة الواقع.

كثيراً ما تساءلا، كيف كانا ولماذا لا يقف أحد أمام طموحاتهما الكاسحة، بل على العكس، يعتقد الآخرون، أنهما لا يقهران، فلا يجرؤون على إبداء ملحوظة واحدة ولو مزاحاً.

انتهى الاجتماع السري سريعاً، وامتدت موائد العشاء قرب البحيرة وعطور الأجساد الناعمة تزيد رطوبة المساء رومانسية وبهاء.

- أحب اللحم أهبرَ يا باشا.
- بل يحبني اللحم الأبيضُ، فأنا فرعون يا بيه.

كان القمر في سماء الاستراحة الماجنة والفاخرة بكل ما يشتهيه ثري فاحش الثراء ينظر بذات العينين على نوافذ باهتة الأنوار لا تستطيع ستر جوع وشقاء ملايين

الناس ممن استثمرت أموالهم بيد أمثال هذين الرجلين اللذين ما يزالان يكنزان ذهباً وفضة من جوع وشقاء بحدود جشع بلا خفير أو ضمير.

اعتراف

اسمح لي سيدي الكاهن أن أعترف لك، وقبل اعترافي أعترف أنني لا آبه لك، فقد تكون شرطياً في ثياب كاهن، وقد تكهن الآن علي وتتكهن بما يعجبك

فتسطر ما تشاء لمن تشاء. اعذر وقاحتي فهي بوحي الأخير لن يغفر لي صمتي طوال ستين وثلاثة من السنين كانت جوفاء مثل جرة ماء خاوية.

اسمح لي أن أعترف بفشلي الذريع. وأن أفشي سر صمتي المقيت على جميع الأصنام التي ركعت أمامها باسم التجاهل عن كونها أصناماً تضر وتنفع.

اسمح لي أن أعترف بخيانتي لنفسي التي عشقتهاً دوماً وحرمتها من عشقها دوماً.

اسمح لي أن أعترف أن كل قطرة دم سالت وسقت حفنة تراب الوطن المدفون في كتب الحب كانت مجرد ماء بلون أحمر كما أفلام بوليود.

اسمح لي أن أعترف أنني فعلاً أعشق قميص ابن المختار الأحمر وأن هذا القميص الذي خلته دمر حياتي هو أجمل صنم بعته لصديقتي، بصندويتشة هوت دوغ، أفرغْتُها من اللحم لها وأنا أتلذذ بمشاهدة نهديها يرقصان خلف دمائي الشابة التي حرمت الجنس لأنه يخص عشتار فقط.

أعترف أنني فشلت بالبقاء حياً أفخر بمجد مسَّاحة رِجلي الوزير، فرفستُ كالبغل نعمةَ حورياته المومسات وليالي أنسه الحمراوات.

أعترف أنني تغابيت عن الحب ولعنته لعنة مخصي كره جميع نساء القصر. لأنهن كنَّ شتاء سان بطرس بورغ في حرِّ مكة. وكنَّ مترو موسكو في أنفاق عرفات ومِنى.

أعترف للمرة المليون سيدي الكاهن أنني كنت أحترمك لأنك كنت أذناً لكل مستطير مثلي تسمع ولا تملك لسان الشرطة أو قلم المخبرين.

أعترف سيدي اللعين أنني لعين مثلك. ربما كنت ابنك بالرضاعة، فأنا أعترف لك على فراش الموت، كما ستعترف لي يوماً على حبل المشنقة.

سيدي الجليل؛ يا قلم الرصاص بالطربوش العثماني الأحمر المنتصب كأذن حمار واحدة على ممحاتي البيضاء القديمة ذات الرائحة الشهية، اسمح لي أن أثرثر عبثاً في قُمرتك الخاوية من كل رفوف الموبقات عن مساراتي العديدة ومساربي الشريدة. وأنت إن خالفت شرع القضاة في كنيستي ولم تنشر روايتي فلن تسلم من بذاءتي التي استيقظت للتو مع اعترافي هذا قبل غوصي في باقي مسارب التيه التي أودت بي منك ثم إليك.

*

أثارت عبارات الاعتراف القمَّامَ الصغير الذي طرد من المدرسة الإعدادية لعدم استيفاء الموجه التربوي منه حصته الشهرية من السجائر، ومن أين لابن الشهيد ذلك وقد ولدته الصبية تحت فخذي أحد مدعي حماية الوطن حتى صارت قطعة سكر ذائبة أمام عيني المراهق المكلوم.

جلس اليتيم على علبة زيت صدئة يقلب رواية "مسارب التيه" التي عثر عليها بين كتب مكتبة مرمية في زاوية بعيدة من مكب نفايات المدينة، متخذاً من كومة قمامة ساتراً يقيه نظرات القمَّام الأكبر الذي وظفه قبل أسبوعين في تجميع النايلون من المكب مقابل وعد لا يشك بكذبه بدفع أقساط المعهد الخاص بداية العام القادم.

رثاء

أي كاتب أنت! أي قاص! وأبطالك أسمالك؟ وبيئتك حرمان! وإن تلامست حروف الواو والطاء والنون تُغرورَق عيناك بما تكره من ضعفٍ، وكأن المنون قابَ قوسين أو أحنَّ من ذكر الألف والميم بياء أو دون ياء!

كثيرون يتاجرون بالحروف ويربحون ويتوَّجون في حفلات التواقيع على صفحات أولى، ربما لا يدركون ما يليها من أفكار.

كثيرون تملأ المطابعُ مكتباتهم بما أغرقوا به سوق اللا قراءة بمنشورات تطبعها مناصبهم أو كروش مستفيدة بطريقة أو بأخرى.

تستديرُ لتطبعَ، وتفرقَ حزنَك على من لا ينقصه الألم. فماذا تربح؟

ارتفعت الأسعار وطار بلا جناحين الأخضر الدولار وماتت حبيبة القلب الليرة التي كانت تطعمك وتسقيك وتكاد تكسي رجليك معاً.

كاتبُ ماذا أنت؟ كاتبُ هموم التعساء من شاكلتِك المهزومةِ في سوق الرخاء والسيجار وغمزات الصبايا المائلات نحو قصيدة!

تأبطْ أقلامَك وارحل! فالسكة حفَّرها الحيفُ، ولا نقودَ لديك تستر عورة الزمان. أو حتى أخاديد الوجع الموروث بحب الترابِ الحزين.

يخطئ الرصاصُ كما يخطئ الحبُّ قلبَك، فيبقيه على حافةِ لائحة انتظار، وقد ملَّت المطارات رحيلك.

تنكب مواقدَ الأمل، واحفر الوجدَ على شمعهِ ذكرياتٍ ستذهبُ مع الرجاء اليتيم إلى تنور بلا خبز أو ماء.

هي أوراقُك لملمها! فقد غمرها الكسوف، ونام على خاصرتها ألف عويل ونواح.

أيقظ قناديل العمر قبل أن يجف زيتها الموؤود فهي كهف التغاضي، وانتشل زوادةً وضعتَها قبل جيلين وعمرين وفتنةِ طفولة.

هذي عصاك هُشَّ بها على فراشات حلمتَ بتطريزها على حواف فستان الحبيبة التي سافرت في حلم قصيدة، فلتذهب رامية الريح خلفها وتغدو إلى حقول أخرى، قد تجد هناك فساتين عرس من حرير، وياسمين، وعرائس فقدن نصف أحذيتهن.

قبرك هناك، صار الوطن الذي لا ينبذ أحد، أوصِ الباقين على حافة الوجدِ أن يدكوا التراب دكاً، فلا ريحان يغفو على أديمك ولا دفلى تدعي وفاء عهدك.

أوصالك التي راحت تجوب الثراء ما عادت تطيق وجهك، فاتئد بالحب، ولا تُغرق بدم الكبد قلبك.

ويطرق بابَك المفتوح على المدى صوتُ وعيد يرتدي جبة النعاج، يريد وصلك، يدخل الفؤادَ عمداً ليزرع الصدع الأخير في صدرك، ويغرس رمح التشفي، أنه قد صار كاتباً لا تَصدُّ له الريحُ أشرعةَ الولاء، وهو السفيه لا امرأة تنهيه عن غيه ولا حبل الوريد.

لا توصد الأنواءُ ذكراك، ولا تموء على شرفة الوجد أغصانُ الحياء، ولا تحزن عليك الحبارى، ولا الصحارى ولا النسيان.

رُح يا سيدي، رح! في رواحك راحتُك، وتولَّ حيث شئت ركن قصيدة، تعلق بنونها ولا تترك أساك يأسو آسياً قلبك.

فقد تنمو النسائم على شُباكها الناسي لون الشباب، ويزهر في كهوف البؤس وردك.

أو! نم هناك فلا تفِقْ! وغِب بين أروام الحجارة، فقد عاصرت قبلك ملايين الحقب، هناك حيث تذبل قوافيك ويسَّاقط نثرك عن باقي الجدران، فلا يفيء بظل عريشك عصفور، ولا تبني العناكب قصور أحلامك.

شفة السلام

تذرو الظنونُ الصدى. تنداحُ الرؤى حصىً دغدغت حيناً صلاتَك، تَعِبُّ عينيكَ سنونوةُ مساء.

تلهثُ كنورسٍ صامَ عن حلمٍ، وارتدَّ مع الريح، تنتشـــلُ القذى. وليس في مدىً مدد.

هي الزهورُ تخشـــى، تَنفي، تَذوي، تحت رفات حطب! والقبوُ بلا نبيذ ولا صمتٍ!

وأنتَ هناك في اللا مكان، تنتظرُ اللا زمان كي تزدردَ وعدَك!

نم مرة أيها القلقُ عن غُصنٍ تدلى ولهاً، نم يوماً أيها اليومُ عن عَقدٍ بدا حلماً.

واتئد يا وقتُ. صلِّ ولو مرة! وابكِ، عقاربُك نفسَها تلسعُ إن دبَّ فيكَ الحنين.

وأنتِ، تطلين سهواً خلف أسوار العتب، لمي ذيولَ الآتي، فالوجدُ تُنعسه المواعيدُ الآبقة، وانثري على كُمِّهِ طعمَ الخُبزِ، ولوثةَ النسيان، وتيهي فيَّ، فوضى حروبِ همجية وتشظِّي قنبلةً في صنوبر دِماغي أو إعرابيّاً صار بلا عِقال!

...

تعبتُ أنا، تعبتُ، منذُ ألف دهرٍ وكاهلي مِشحَذٌ لنصالِك.

وظهري سِندانُ غضبِك، وهوانُ السنابلِ عنُقي. وطاسي وسلالي مراتعُ شَغْبِك، وسطوري الفارغةُ أرجوحةُ هذيانِ هدوئك!

...

فهل يحينُ الآنُ بعد إذ شاخَ الأملُ؟ أم تبصِمُ الخواتيمُ خواتيمَ الزهور؟

اســـتطاعَ الإفلاتَ مراتٍ عديدةً من بين براثنِ الغدرِ، وتجنُّبَ مراميَ الأعداءِ بمبادراتهِ إياهمْ قنصاً أو دونَ قنصٍ. فكان له السبْقُ في حمايةِ رفاقِه وقادتِه الذين اعترفوا أمام روحِه التي أبتْ مغادرة جسدِه طيلةَ شهورِ غيبوبته الطويلة.

استيقظَ ذات وقتٍ، لم يدركْ ساعتَهُ، وسطَ ثرثرةٍ تشرقُ منها فرحةُ اللقاءِ وشوقُ المحبةِ.

وبعدَ تلاشـيَ غشـاوتي عينيهِ شـاهدَ بوضـوحٍ متباينٍ وجوهاً غريبةً عنهُ لصـبايا وشبابٍ وكهولٍ.

حاولَ النهوضَ لتحيَّتهم خجلاً من وضْــعِ اســتلقائه، فتنادت الآلامُ من جميع أجزاء جسدِه الهزيلِ وامتزجتْ عبارةُ "أهلاً وسهلاً بكم" بأنينٍ متقطّعٍ يأباهُ عادةً، فصدرَ تساؤلُه العَجِبُ "ما، ماذا حدث، أين أنا. لماذا؟؟" وقبْلَ أن يسمعَ جواباً سقطَ على فراشِه في غيبوبةٍ لم يدركْ متى بدأتْ أو كيفَ أو لماذا.

تكررتْ عودةُ وعيِه إليه عِدةَ مراتٍ يومياً إلى أن اسـتقرَّ وضـعُه، فنقلوه إلى غرفةٍ عاديَّةٍ في المستشفى لبضعةِ أسابيعَ إضافيةٍ.

في تلك القريةِ الي شـهدتْ معظمُ بيوتِها جنازاتِ شـهداءَ، أو تطايرتْ من غرفِها روائحُ المراهمِ المهدِّئةِ لآلامِ الحروقِ، وحيث يشقُّ سكونَ ليلِها البهيمِ أنينُ الجرحى الذين نفَدتْ أدويةُ تخديرِ كسـورِهم. هنالك كان القرارُ بطيّ صـفحاتِ الحُزنِ وإشـعالِ شموعِ الفرحِ المؤقَّتِ قد اتُّخِذَ بإعلانِ عُرسٍ جماعيٍّ لأبطالِ الجيشِ العائدُ معظمُهم بإعاقاتٍ جسديةٍ من صبايا نذرنَ شبابَهُنَّ لغدٍ كسونَه أحلاماً بيضاءَ وياسمينَ وبعضَ حبورٍ.

إنَّها الحياةُ رغمَ كلِّ الموتِ المطبِقِ بجميعِ مظاهرِ الجلالِ أو البشاعةِ، والبشارةُ رغمَ السوادِ المسيطِرِ وكلِّ الخساراتِ وخنادقَ الأملِ المحطَّمِ المردومةِ بالفجيعةِ.

وبما أنَّ الولادةَ سـرُّ الوفاةِ، والموتَ عُنوانُ بذْرٍ جديدٍ، فقد نُفِّذَ قرارُ العقلاءِ الموافقُ لأحلامِ الشـبابِ والصـبايا، فكانَ العُرسُ الجماعيُّ لجميع المسـتعدين لتناسي قهرِ الواقعِ الأليمِ، الجاهزينَ لبناءِ أُسَرٍ جديدةٍ تؤكِّدُ التَّصـميمَ على عبورِ مسـتنقعِ الوجومِ والصـمتِ الكئيبِ والترقُّبِ الحذرِ لقلوبٍ واجفةٍ في ضبابٍ لا تكادُ تبدِّدُهُ شمسُ انتصارٍ حتى يتكاثفَ من جديدٍ فوراً بعد ظهورِ مأتمِ مجزرةٍ هنا أو قافلةِ شهداءَ هناك.

ترجَّلَ من الحافلةِ الصَّغيرةِ التي تابعتْ طريقَها نحو القريةِ التاليةِ. كان بعضُ الجيرانِ والأصدقاءِ واقفين وكأنَّهم ينتظرون عن سابقِ قصدٍ حدثاً ما تعوَّدوا عليهِ.

- أوه، حســـن ألفُ الحمدُ لله على ســـلامتِك. لقد فقدنا الأملَ من عودتِك يا رجل، أهلاً بكَ.

- حسنْ؟ أهلاً يا بني، لِمَ لَمْ تخبرْنا بعودتِك من قبْل، لكي نقومَ بالواجبِ.

- حسن! الشهيدُ الحيُّ يعودُ من جديدٍ؟

فوجئَ باســتغرابِ أبناءِ قريتِه كباراً وصــغاراً من عودتِه، ولم يدعْه تكرارُ الأســئلةِ والاســتفســاراتِ ذاتها تقريباً من تحديدِ إجابةٍ واحدةٍ، وبعد صــمتِ الســائلينَ ودهشتِهم سألَ:

- وهل كنتُم تتوقعون موتي مثلاً؟

صمتَ الجميعُ، وتهدَّجَ صوتُ أبي سعيدٍ وهو يقولُ:

- لا يا بُني، يتحولُ الموتُ في معاركِ الشَّــرفِ إلى شــهادةٍ، وقد حدَّثَنا بعضُ الضُّباطِ عن بطولاتِك الرائعةِ التي أكبروا قدْرَ شأنِك فيها.

- ولماذا يأتون إليكم؟ أو، لماذا...

هنا يكتشــفُ المقاتلُ سِــرَّ الأســئلةِ، فيطرقُ في الأرضِ لبرهةٍ قبلَ أن ينقذَه من هواجسه أبو سعيد:

- المهم أنَّك حيٌّ تُرزقُ يا بنيَّ. ابتعدوا عن طريقِه، واذهبْ يا حسَّـــانُ لتبشِّـرَ أبا حسـن بقدومِ حسـنٍ، البطلُ بشـحمِهِ ولحمه، آه يا أمَّ حسـن! ليتكِ تعلمين.

- ماذا تقولُ؟ أمي ماتت؟

- لا يا بني، لم تمتْ والدتك، بل هي مريضةٌ جداً.

اختلطتْ زغاريدُ النسـوةِ من خلفِ النوافذِ بصـدى زغاريدِ الليلةِ الفائتةِ دون أن تصلَ مخدعَ عروسين لم يُمضيا بعدُ نهارَ زواجهما الأولَ.

لم تكنِ الشـمسُ قد لامسـت أفقَ مغيبِ ذلك اليوم عندما وصـلَ المقاتلُ حسـن الخارج من نقاهته إلى مقرِّ كتيبتِه العســكريةِ. العلَمُ ما يزال يرفرفُ على الحاجزِ القريبِ من بوَّابةِ الثُّكنة، لكنَّ أحداً لم يصرخْ بوجهِهِ "قفْ".

ليس هناك أحدٌ. فتح البوابةَ الحديدية واتجهَ نحو مقرِّ قائدِ الكتيبةِ. كانت الأبوابُ مغلقةً، وبعضُ نوافذِ المهاجع تصـرُّ مسـتجيبةً لرياحِ المسـاءِ المتسـارعةِ مع هبوطِ الظلامِ. إنَّها الباديةُ السوريةُ، حرٌّ نهاراً وقرٌّ ليلاً، والهواءُ لا يغادرُ المكانَ.

نظرَ حسن في جميع الاتجاهات، وحدَّثَ نفسَه الصائمةَ عن البوحِ: " إذاً، تمَّ إخلاءُ المكانِ والانتقالُ إلى آخر، لماذا؟ لا دمار سوى في بعض المقراتِ وغرفِ مخازنِ الأسلحة!؟

جلس حسن أمام البوابةِ الرئيسيةِ على ذاتِ الصخرةِ التي كان يرتاحُ عليها إبَّانَ أوقاتِ حراستِه. الصخرةُ التي تعرفُ قصص اللعب ومشاوير المساء وحبِّه لميساءَ التي تزوجت يوم أمس، وكانت قد وعدته أن تبقى معه.

ماذا يفعل الآن؟ المسافة طويلة حتى الطريق المعبَّدِ الواصلِ بين مدينتي تدمر وحمص، والوقت ليلٌ، ولا يوجد إنسانٌ في هذه البادية غيره؛ فقد يأتي على حين غرة حيوانٌ مفترسٌ ويلتهمُه. لا سلاح لديه يحمي به نفسه ولا ملجأ سوى بعض غرفٍ إن دخلها من النوافذ فقد لا يأمن عقاربها وأفاعيها. والطعام؟ لا طعامٌ لديه وهو الذي لم يأكل لقمة واحدة منذ الصباح حين تناول بضع لقيمات على عجل من فطور المستشفى الذي كان فيه.

في القرية استقبله والده بانهياره أمامه لهول المفاجأة، أما والدته التي كان قد جاءها خبر أنه وقع أسيراً بين أيدي الإرهابيين وأنهم قطعوه أشلاء أشلاء، فقد

مزقت ثوبها ونتفت شعرها وجنت، فلم تعرف أن من تتلمسه الآن هو حسن فعلاً وليس أي شخص آخر في الشارع كان تدعي أنه حسن، فيضطر للصراخ بوجهها أنه ليس حسن وأن ابنها مات وأكلته القطط والكلاب.

ميساء التي كانت مخطوبة له تزوجت قبيل وصوله بليلة واحدة، والذريعة خبر استشهاده الذي جاء به ضابطان من كتيبته.

لم يأكل في القرية لقمة واحدة، ولم يتكلم جملة واحدة بعد المفاجأة المفجعة التي صدمته وكأن جبل جليد انهار عليه وطمر متنزه أحلامه الوردية. حتى حذاءه العبق بروائح المستشفى لم يخلعه من قدميه.

وها هو الآن في قلب الصحراء الخاوي، يقتعد الصخرة الصديقة، رأسه بين راحتيه، يظن أنه عاد إلى أهله الجنود، كي يموت تصديقاً للجميع.

جاء من قرية فيها بشر، لكنها تعتبره ميتاً، ولا كينونة لميت بين الأحياء، وأمسى في ثكنة من الأطلال، هو الحي الوحيد فيها، بل ربما على مرمى النظر الحاد في جميع الجهات.

وقع خطوات حيوان رشيقة تقترب منه، لم يرفع رأسه، لم يقشعر بدنه، لم يشعر بالخوف!

كم قتل هنا من حيوانات يعرفها ولا يعرف مسمياتها! كم أفعى سامة؟ كم عقرباً أسودَ مرعباً!

يحق لهم الاستفراد به الآن، ربما هم جائعون مثله! فهو طعام جاهز لهم، في حين لا طعام لديه أو ماء!

سيمضي الوقت طويلاً جداً حتى يبزغ نور الفجر إن بقي حياً.

تراكبت هذه الهواجس في مخيلة حسن وقد نسي تماماً أن رأسه المنكس صار على بعد سنتيميترات قليلة من خطم الحيوان اللاهث الذي بدأ يشتمه ويصدر جوفُه الجائع ربما صوتاً غريباً.

تجمد في مكانه فجأة، حبس أنفاسه، فقد تذكر حديث جدته يوماً أن بعض الضواري لا تأكل الإنسان الميت، لم يكن يصدق ذلك، لكنه الآن مجبر على القيام بالبرهان صدقاً إذا لم يصبح خلال دقائق وجبة طعام دسمة لهذا الذئب أو الضبع أو ربما الكلب البري الضاري، وغالباً ما يكونه هو فقد بدأ يصدر نباحاً خاصاً خافتاً وغريباً.

ارتفع صوت الكلب الضخم الذي هجم عليه بجسده الثقيل ذي الرائحة الكريهة، فأسقطه أرضاً، دون أية مقاومة منه!

بدأ الوحش يلعق وجه حسن بلسانه بعد أن جثم بكل ثقله عليه.

كان الظلام شديداً، والوحش يقلب حسن يميناً وشمالاً بيديه القاسيتين دون أن يطبق عليه بفكيه، أو يصـــيبه بمقتل! وفجأة ابتعد عنه بســـرعة حتى ضـــاعت أصوات وقع أقدامه وسط الظلام.

انتظر هجوماً مباغتاً في كل لحظة تالية، وهو ما يزال متكوراً على نفســـه، لكن شيئاً لم يحدث، فحدث نفسه وقال: " صدقت جدتي." وحمد الله على سلامته ثم أردف لنفســـه: " وما الفائدة من هذه الســـلامة؟ ربما ذهب الكلب مطمئناً لعدم إمكانية ابتعادي عن المكان ليأتي بعد قليل بفريق من كلاب عائلته، وربما هو مستكشف طليعي لا غير!

استيقظ فجراً ليجد نفسه، حقيقةً، بين مجموعة من الجراء تحيط به وهي تلهث فأيقن حدس الليلة المنصرمة، ثم لاحت منه التفاته نحو الخلف ليرى كلبة ضخمة تجر بفكيها كيساً من القماش العسكري وتتجه نحوهم بمشية خلفية.

عرفها الآن، هي ذات الكلبة التي أسعفها ذات يوم من جراح رصاصات قناصة إرهابي ماجن زرع في فخذيها أربع رصـــاصـــات، وها هي اليوم كما يبدو ترد الجميل لمنقذها وتحتفل مع أبنائها بوجبة طعام ســـيقدمها هو للجميع بعد أن يفتح علب السردين والمعلبات الأخرى في هذا الكيس المنسي في أطلال هجرها ساكنوها.

فاوستوس

(اقتباس عن مسرحية فاوستوس لكريستوفر مارلو)

ذرع مكتبه جيئة وذهاباً وهو يفكر بصوت عالٍ متسائلاً عن جدوى الحياة. علم أسرار الطب وعالج المصابين بالجدري والسل محاولاً إنقاذهم من بين مخالب الموت دون جدوى، لكن الناس رسموا له تمثال جلال ووقار زاد من سخريته بهم لجهلهم أنه فشل في إنقاذ أي مريض! وهذا ما رفع غروره درجات!

تفحص مراجع علم الفلك على طاولة مكتبه، كانت السطور مألوفة جداً حالَ مراجع علوم الرياضيات والفيزياء والطب. حتى الإنجيل لم يمنحه بارقة أمل بالنجاة من خطايا الحياة العالقة بغروره وصلفه وعشقه للعيش في خيال السيطرة على كافة علوم الارض والسماء، بل أنذره أن الجحيمَ مصيرُ الخاطئين! توقف في وسط المكتب، قلَّب صفحاتِ كتابِ السحر وصرخ بصوت عال:

" هنا العبقرية السرمدية"

وبيَّت أمرَه الكامنَ في صحوةٍ خالها الخالدةَ ونادى خادمَه الأمين:

-اذهب بسرعة الشوق إلى صديقيَّ الساحرين وهاتهما معك!

وقبل أن يصل رفيقاه الأستاذان الجامعيان، العالمان فقه بواطن سحر استحضار الأرواح، رسم على الأرض دوائرَ وأشكالٍ هندسية تماها برموز خاصة ثم رحلا.

-أنت أيها الشيطان الأعظم! احضر هنا فقد مللت الكنائس والمعابد ومذابح القرابين البريئة!

كانت الدعوة جنونية فاجرة غاضبة حانقة أحدثت ضجيجاً كرعد قريب سبق برق السماء، ومن ضباب الوعي صدر صوت الوحش المرعب:

-ها أنا ذا أمامك! ماذا تريد؟

كانت المفاجأة شبه صاعقة بالرغم من إلحاح غروره وصلفه، ولم يكن الرعب أقل في قلبه الذي بدأ يخفق بشدة خوف فقدان الرجاء.

-اخرج أيها القذر وعد بثياب تليق ببشر!

زاده التفاخر شعوراً بالثقة وهو يرى شبحَ الشيطان يرضخ لطلبه، إذن، ستكون مشيئته الغالبة.

بأناقة تفوق ذهول فاوستوس وبسرعة لم يتوقعْها شاهد الشيطانَ المتعجرف واقفاً أمامه يستعجله البيان.

قال فاوستوس:

-أنا العالمُ فاوستوس، العالمُ كلَّ شيء، أريد توقيع عقد جهنمي معك، مقابل منحي السلطة عليك لتنفيذ كافة رغباتي الحالمة لربع قرن قادم أو أقل بسنة واحدة!

بنفاق الآسف على الروح الخاطئة الذليلة المتفاخرة أمامه صرح ميفو أن القرار لإبليس اللعين زعيم الشياطين كافة، وليس له، لكن العقد يجب أن يكتب ويوقع بالدم! وهكذا كان.

في لحظة التوقيع أبى دم الإنسان السيلان، فأيقن فاوستوس أن الندمَ واجبٌ، اللحظة، والتراجعَ، عن دخول بوابة الجحيم، مطلوبٌ الآن؛ لكن الشيطان ميفو منح الدمَ بعضَ اللهب فسال كالماء راسماً عبارة التوقيع: "فاوست بن فاوست الأكبر."

في جلسة التعارف الأولى كان السؤال الفظيع:

-أخبرني أيها الشيطان الملعون، قصة إبليس الرجيم.

صمت ميفو، ولم يرد الرد بإجابة يتقنها طالب مدرسة صغير! لكنه بعد الإصرار قال:

-الإباء والغرور قضيا على أكبر صداقة في الوجود، والنتيجة جهنمُ وبئس المصير، نارُها تحرق الكائن ولا تمحوه بل وتبقيه، فلا أنت تموت فيه بل تعيش فيه في تيه!

-صف لي نار جهنم إذن! وكيف يحتملها إبليس وأنتم معه معاشر الشياطين.

ويصمت ميفو بحزن، محاولاً الترفع عن الجواب البسيط السخيف، لكن إلحاح العالم الفقيه بجميع أسرار الحياة يجبره على الجواب بحُكم أحد بنود العقد:

-أنت يا بروفيسور تعيش الآن في الجحيم، الحياة التي تعيشها هي الجحيم، أما النعيم فهو هناك عند الرب فقط، حيث لا شقاء ولا حاجة ولا عذاب!

وفي لحظة شكه بتورطه وارتيابه المذعور يزوره ملاك الخير ويهتف برفق وحنان:

-تبْ إلى الله واعمل صالحاً تنقذ روحك وتخرج من هذا الجحيم!

وقبل أن يلبي النداء يحضر شبح الشر وينذره أن النكوص والتوبة بعد الفسق لا ينفعان ويقول:

-تمتع يا سيدي بأحلى النساء، واكنز ذهب الهند وحرير الشرق وبما تشاء، وتمتع ببهاء الملوك وصداقة الأمراء.

وتصرخ الشهوة على لسان فاوست:

-ميفو! أيها الملعون! أحْضِرْ لي، ولا تعتذر، فالعقد يفرض عليك الإصغاء والامتثال لأمري، أحضر لي أجمل نساء الكون زوجة لي، أعيش معها بكل حب وصفاء، وننجب أجمل البنات وأذكى الأبناء!

ويهرع ميفو بسرعة الاشتهاء وقوة الشبق نحو عذراء، ويقول له مقنعاً وضاحكاً على ما بقي في عقله البشري من خير النقاء:

-أيها التابع للشيطان، الملعونُ مثلي، لا تفكر كمتدين! لا تنفعك زوجةٌ واحدة، سأحضر لك أجمل بنات حواء كل مساء! ما لك وللزواج، إنه عقد إذعان ورباط عقيم، إنه سر خراب الإنسان، إن الزواجَ يا صديقي مهلكةُ الروح ومفسدةُ العقل وللجسد البشري كل البلاء، دع شيطان الشهوة فيك يحفز شياطينك الثاوية، واطمع بجنس ثري المتعة ودع الكسل والارتخاء ينشران عليك جمال الرفاه والنشوة!

ويضيع حلم فاوست بالزواج الناضج كعاقل يهوى الاستقرار العاطفي، فينوي بلحظة التوبة إلى الرب الذي منع عنه هذه الأفراح الممتعة، ودعم رجاءَه للتو حضورُ ملاك الخلاص، ليملأ بالحبور صدره ويمسد له روحه بمتعة الصفاء. لكن إبليس الأكبر يسبق الرجاء ويحضر ويصرخ: -تباً لك أيها الماكر الذاكر الرب! لا تغضبني ثانية فالعقد المختوم بدمك القذر معي!

وبعد لحظة يصمت شيطان الغضب تاركاً صديقه الدهاء يتابع على لسان ابليس الأكبر الحديث بكلام ناعم أليف:

- لا تخف، أيها الملعون الجديد! تعال إلى نائب رب أصحابك القدامى، هناك قد أسمح لك أن تستغفر أو تتوب، هناك سأمنحك فرصة فسخ العقد الوحيدة! ولكن حاذر غضبي ومخالفةَ بنود العقد! إن ما بقي فيك من إيمان سيتبخر في ذات الآن.

كان البابا يراقص في احتفال خاص الخيال والمجون ويقسم بأبيه وجده وليس بالرب المخلِّص أن يدحض كل منافس له على كرسي زعامة البشر! وكان على بابه

قساوسة نجباء يحرسونه من عبث الغرباء! وعلى طريق المنفى كان جلاوذة يسوقون البابا الجديد الفائز بثقة الكرادلة للجلوس بعيداً عن العرش الإلهي. هناك، وبعد أن شارك ربَّ البسطاء احتفاله الشهواني كالخيال! هتف فاوست بأذن صديقه الشيطان ميفو راسم خيالات السفه والفرح والسعادة قائلاً:

- هات العقد أريد التوقيع والختم ثانية عليه، فقد ضاعت وعود السماء ولا عودة بعد الآن إلى خيالات الولاء.

السفور

قبل وصولهما إلى المنزل من السوق سبقته زوجته لتحضر صحن المكدوس الأخير مع عشرة حبات الزيتون المتبقية في قعر زجاجة حفظ الزيتون، بينما اتجه الأستاذ محمود نحو الفرن للحصول على رغيفين من أجل الوجبة الأخيرة في البيت قبل سفرهما.

كان طابور الواقفين على الدور طويلاً، اعترضه بعض الفتية الخبثاء متظاهرين أنه ارتطم بهم ليبثوا حقد عيونهم أمام نظره الكليل، لكنه اعتذر منهم ومدحهم واحداً واحداً، بأنهم جيل المستقبل الواعي وشبابه العظيم، لينجو بمديحه من إهاناتٍ كانت على فوهات أفواههم وبين أصابع قبضاتهم المشدودة على نصال أمواس أو حجارة أو أشياء لا يعرفها.

على كوة المئة ليرة كان هناك آخر زبون يرحل بخبز ساخن تفوح منه رائحة الاشتهاء، وأمام أول الواقفين على الدور سحب آخر ما تيسر لوساطته من حمل خبز يتعثر به. تقدم الأستاذ محمود يطلب خبزاً بخمسين فقط، لكن زبانية

الفرن صرخوا به أن يقف في نهاية الطابور، أخبرهم أنه مسافر مع زوجته ويكفيه نصف كيلو من الخبز، لكن جامع أموال الزبائن صرخ بوجهه:

- هل تدري من أنا؟؟ أنا أستاذ مدرسة وأعمل هنا.

- وهل تدري من أنا؟؟ انا أستاذ جامعة متقاعد وأطلب رغيفين!

لم تنجح محاولاته بالحصول على رغيفين، فعاد أدراجه يلم خجله وما بقي من فتات كرامته أمام الطابور الذي تشتت فجأة تحت أشجار المكان.

في الكشك المقابل قرر الحصول على ما أوصته به زوجته، فما يزال في المحفظة بعض النقود تزيد عن أجرة الطريق، لم يجد المطلوب لكن البائع زوده قسراً ببديل يبدو عليه سوء التخزين وقال له:

"هي ستكتشف أن هذا البديل أفضل، مع السلامة."

فوجئ على باب البناية بكشك آخر يبيع الخردوات، وقبل أن يسأله عن وجود خبز لديه لمح بعض الصمون في درج زجاجي داخل واجهته القذرة، فسأله:

- هل الخبز طري؟ أي صنع اليوم وليس الأمس؟؟ أريد فقط قطعتين فنحن مسافرون اليوم.

ضحك الرجل منه وقال:

"لدي عشرين طن منه!" ثم أخرج صمونتين مضغوطتين وقد تعفر سطحاهما فبدتا كسطح الأرض العطشى المتشققة.

– وأريد عبوة زعتر تكفي لوجبة واحدة، فنحن لم نفطر بعد رغم عزوف الشمس عن قبة السماء.

وجد الأستاذ محمود قطعة نقد ورقية كبيرة واحدة، قدمها لصاحب الكشك الشاب الذي اكتشف أنه والد صديق دراسة كان يحبه ويحترمه كثيراً. ثم طلب منه أن يعيد الباقي له كي يتسنى له السفر به.

عندما عاد الأستاذ ليجمع أكياس مشترياته وجدها فارغة، ونظر في الكشك ووجده فارغاً من أصحابه أيضاً، ومحفظته باتت فارغة أيضاً.

فتش في حقيبة معلقة على الحائط فوجد مستندات سفر لزميل دراسته، فاحتفظ بها ليحصل عوضاً عنها على باقي نقوده وقطعتي صمون بائتتين وكيس زعتر يحاول السوس الخروج منه بعد شبعه.

خرج من الكشك، وأطفأ أنواره، ففوجئ بصاحب الكشك المقابل يفرش بضاعته على الرصيف وعلى إسفلت الشارع، وينظر نحوه نظرة شاهد على سرقة، لم يبال، فأقفل الكشك واتجه نحو درج البناية، وهناك ظهرت فتاة كشفت عريها بعد فرار شاب عنها بسرعة وصرخت بصوت مفزع: "يا للعار" وسكبت سائلاً من زجاجة على سرواله.

لم يهتم للجموع البشرية التي التمت حوله وصعد إلى المنزل ليكشف خزي اليوم لزوجته العجوز، لكنه وجدها واقفة أمام باب منزله المفتوح والفارغ من الأثاث.

- فكوا قيوده.

تقدم مسعود من القاضي بلهفة الغريق الذي فوجئ بقارب فوق رأسه في بحر متلاطم الأمواج، وقال:

- شكراً يا سيدي القاضي، ألف شكر لكم، أنتم من سيفهمني، وليس غيركم من يقيم العدالة.

- تراجع إلى مكانك يا بني، وقف في القفص، وانتظر الأسئلة ثم أجب بدقة على كل سؤال.

طأطأ مسعود رأسه بتخاذل، وعاد نحو قفص الاتهام، وهو يردد بينه وبين نفسه " حسناً، أنت تعرف القانون أكثر مني، وسوف أنفذ أوامرك، فالمحكمة مسرحك، وما أنا سوف ضيف مؤقت."

سمح القاضي لمحامي الرأي العام بالبدء بمطالعته، فنهض منتصباً وسعل عدة مرات كي يعم الصمت المكان وقال بصوت حماسي، كخطيب مفوه يلقي كلمة النصر على حشود تغص بها الساحات والشوارع:

"سيدي الرئيس، إن مجتمعنا وحكومتنا وسياستنا السمحة تعطي الإنسان أسمى حقوقه، بمنحه الحرية والعيش الكريم."

هنا تمتم مسعود: " وأنا أمارس هذه الحرية، فلماذا قبضتَ عليَ؟"

تابع المحامي:

" وبما أن هذا الماثل أمامكم قد خالف العرف المقدس عندنا، وأقدم على تقبيل فتاة في الحديقة، وأمام الناس جميعاً، فقد أخل بحرية الشعب بممارسة حياته دون إثارة الشهوات والفتن، وإدخال عادات غريبة عن عاداتنا السمحة."

قاطعت أفكار مسعود المتوجس من حذق هذا الادعاء، وكرر لنفسه باستهجان: " السمحة! هه السمحة؟"

" إني أطالب عدالة المحكمة بفرض أقســـى العقوبات على المتهم، لكي يكون درساً لمن يعتبر. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

وعندما جاء دور محامي الدفاع الذي وضعته المحكمة نيابة عن المتهم الذي طلب أن يدافع بنفسه عن نفسه، نهض محام قصير القادمة كروي الشكل وتدحرج من مكانه نحو الأمام بصعوبة، وقال:

" سيدي الرئيس، إنني هنا بأمر العدالة الموقرة، وإني لأخجل من تصرفات موكلي بالنيابة، بالرغم من أنه فعلاً مارس حريته المصـــونة بتقبيل حبيبته وخطيبته يوم كتب كتابه عليها، معلنا للجميع، ومستبقاً إشهار فرحته بطريقته الخاصة، لذلك أرجو من عدالتكم، تخفيض مدة الســجن إلى أدنى حد، عملا بالمادة التي تقول "لا حرج عليكم."

مرجل الغضـــب لم يهدأ غليانه مذ برع كما خال هذا المحامي المتحذلق الذي لم يسأله سؤالاً واحدا عن قضيته، بل ارتجل ما ارتجل قيافة وحصافة وممارسة حرية الدفاع عن عابر سبيل.

- وأنت، يا مسعود، ماذا تقول؟

تنفس المتهم الصعداء بصعوبة، لأنه كان قد ظن أن الحكم، قيد النفاذ بالسجن دون سماع أقواله، وقال بلهجة ودية ما استطاع:

- ســـيدي الرئيس، أنتم العقل هنا، وأنتم مثال العدالة، فاسمحوا لي أن أتوجه بدوري بالسؤال.

هنا قاطعه المدعي العام:

" لا يحق لك السـؤال، سـيادة القاضـي هو من يقرر" ثم توجه بنظرة حادة نحو القاضي وقال: "عفوا سيدي."

ولما لم يرد القاضي سوى بنظرة ممتعضة وجهها نحو المتهم، تابع مسعود:

" سيدي، نحن الشباب من ذوي الدم الحار، ونحن مثال الحيوية والنشاط، ومثال الحب والحماس، والعنفوان والاندفاع...."

قاطعه القاضي:

" حسنا، حسنا، تفترشان عشب الحديقة العامة، وكؤوس البيرة والمقبلات بين يديكما، وولداكما يلعبان حولكما، ألا تشعران بالخجل والاستحياء؟ ألا تحسبان حساب المراهقين والمطلقين والعوانس في الحديقة؟"

" سيدي، اعتبره درسا في الحب!"

ضحك الحضور مما أثار بعض الشغب والاضطراب في قاعة المحكمة، لكن القاضي سرعان ما دق بمطرقته الخشبية عدة طرقات متسارعة كدقات قلبه، طالباً الهدوء.

في هذه اللحظات، أصيبت المدينة بذلك الزلزال المروع، فتهالكت جدران المحكمة القديمة، وهرب القاضي والمحامون نحو الخلف من خلال باب قريب، نحو الشارع المكتظ بالناس، بعضهم فوق بعض، صراخ وعويل، وبكاء أطفال، وصراخ أمهات. والركام استمر بالسقوط على المتهم والشهود، وسط غبار يفقد الرؤية وسط ذلك النهار.

أحلام مهرة

مهرة فتاة في السادسة عشرة من عمرها، تعيش في مدينة صغيرة حالمة، تقع على سفح جبل يطل من بعيد على صحراء تمتد نحو الأفق الشريد.

بدأت أحلام مهرة بعد مشاهدتها فيلماً رومانسياً بثَّته إحدى المحطات الأجنبية التي التقطها جهاز استقبال فضائي في بيت إحدى صديقاتها.

كان قلب مهرة يخفق بشدة كلما تذكرت مشهداً من مشاهد الغرام الرومانسية بين العاشقة الهاربة من ظلم ذويها إلى حضن الحبيب الذي ينتظرها على دراجته النارية تحت ذات الشجرة الخضراء الوارفة ظلها على مكان اللقاء الحبيب، في نهاية الشارع قرب المنعطف وفي مكان ما بعيداً عن أعين الوشاة والمحققين السريين كانت تذوب الشفاه الملتهبة في لقاء لا نهاية لشغفه.

كانت رؤى مهرة تغريها بالإغفاء لمتابعة مغامراتها الثرة، لكن أحلام اليقظة المتلاحقة تمنعها من نوم الليل، فتسهر تسامر ضوء القمر المتناثر عبر زجاج النافذة السميك والمقفل دائماً في وجه النسيم والضياء وعيون الغرباء التي قد تسبح في الفضاء فتنتهك حرمة البيت المقيد بالتقاليد الصارمة.

تغيرت حال مهرة في المدرسة، مهرة التي أشعلت حرارة غرفة الصف بنشاطها ونقاشها ومحفوظاتها الغنية بملامح الذكاء المتوقد الذي جعل جميع المعلمات يعجبن بها فيقلن معاً "أصاب من أطلق عليها اسم مهرة" فرشاقتها رشاقة مهرة أصيلة، وفطنتها كذلك، وها هي تربط شعرها فيبدو كذيل فرس جامحة. حتى تناسق

رجليها. هنا يترددن بالتعليق، فيصمتن قليلاً قبل متابعة التغزل بجسدها ليعترفن أن مهرة اليوم غير مهرة الأمس!

بدا رمشا عينيها الأسودان المتطاولان كسيفين يمانيين أكثر جمالاً وسحراً وهما يتصافحان ببطء على عينيها الناعستين الواسعتين كعيني مهاة يتأرج بؤبؤاهما في بحرين من غمام صيف ثلجي البهاء، سكرانين لا يهدأان.

شعرها الفحمي بدأ ينشر ظلاله على كراستها فوق المقعد الخشبي ساحباً رأسها بتثاقل نحو ساعدين ملتفين استقبلا للتو جبينها المتعرق حبات لؤلؤ شفافة.

نامت مهرة غير عابئة بهمسات وابتسامات رفيقاتها الصاحيات وتعليق المدرِّسة المتفاجئة من هذا التصرف الغريب.

للنعاس سلطة قوية وها هو قد أصدر الأمر فعلاً للأذنين الدائريتين فأغلقتا مصراعيهما، وثقل الراس ومال متكئاً على ساعديها، بينما اندفع الصدر المكتنز نحو الأمام، وبكل هدوء ومرونة التصق النهدان اليافعان بحافة المقعد، فسرت رعشة لذيذة في الأوصال الناعسة، وانتصبت حلمتان بازغتان فأرسلتا إحساساً غريباً ارتسم ابتسامة حالمة على الشفتين القرمزيتين المنتفختين فالتمت علويتهما في حضن اللّمية السفلى النضيرة بشهد عسل فتي لم يقطف من قبل.

*

– الشيخ مشاري طلب الزواج من مهرة يا امرأة، جهّزيها له اليوم، سيأتي بعد صلاة العشاء، يحق له مشاهدتها لنصف ساعة، أريدها أجمل عروس في المدينة، فلن نجد مهراً لمهرة أكبر مما قد يقدمه الشيخ مشاري.

خاطب أبو متعب زوجته بحزم وهو يفرك كرشه المتدلي أمامه، وقد قطب ما بين حاجبيه وكأنه يفكر في مسألة عظيمة. أما المرأة القصيرة شديدة السمرة فضربت بكفها الغليظة على فخذها المرتج وقالت:

- وهل ترى ابنتك عجراء يا رجل؟
- لا، لا، ما أريد منك فقط بعض سحركن الذي يفتن عقول الرجال، أليس هو اختصاصكن؟

ضحكت الزوجة بفخر ودلال معجبة بإفصاح زوجها المتأخر عن اعترافه بمقدراتها الأنثوية، لكنها سارعت بالقول:

- اسمع! صحيح أن مهرة تبدو وكأنها في العشرين، فرس بنت فرس، لكنها لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، في مثل هذا العمر يجب أن يدفع الشيخ مشاري الذي يزيدك بالسن مهراً زائداً، وأنا لن أقبل بأقل من خمسين ألفاً بالإضافة لكيلو الذهب.

حمحم أبو مهرة وكأن الأمر مفروغ من بساطته وقال:

- حسناً، قولي هذا الكلام له بشكل مباشر عندما يتقدم ويخطب ابنتك.
- أنا؟

- نعم أنتِ، لأنك ستحضرين مفاوضات الشروط معه، فقد أنسى شيئاً فتذكريني. لو قدر لي لسحبت نصف ثروته، ولكن ما العمل، إنها ابنة واحدة وهو رجل واحد!

وكمن لدغته أفعى للتو انتفضت مهرة من سكون حسبه الوالدان سكوت قبول بمجريات حديثهما وقالت بغضب:

- لا يهمكما سوى المال، أنا لن أتزوج مشاري لكي أكون له عكازاً ثانياً يتكئ عليه في طريقه إلى المسجد.

فوجئ الأبوان بصوتها المرتفع لأول مرة وبدت للحظة قطة تتحول إلى نمر يفتح فكيه ليأكلهما، لكن الأم التي تعودت على ثوراتها صرخت بوجهها:

- أغلقي فمك الكبير أيتها البنت العاق، كيف تجرئين على مخاطبة والدك هكذا؟ هيا انصرفي إلى غرفتك، هيا، هيا!

أما الأب فقد تملكته الحكمة فجأة فقال بصوت حنون لا يخلو من لهجة التهديد:

- اتركيها يا امرأة، اتركيها، غداً تنسى رعونتها تحت ثقل الذهب الذي سيكسوها به الشيخ مشاري.

لكن مهرة الحالمة بشاب وسيم يرتدي قميصاً مفتوح الصدر، يرتفع كماه عن عضلات مفتولة، وتنسدل أطرافه على بنطال الجينز، ويضغط بقدمه المحتذية حذاءً رياضياً أبيض اللون على دواسة دراجته النارية بعد أن تمتطيها خلفه وهي تشد

بساعديها على خصره القوي ليطيرا بسرعة جنونية، فيسرح شعرها خلفها مماثلاً غُرَّة القطار الذي يسابقانه طوراً على عجلة واحدة وطوراً آخر على عجلتين.

مهرة الحالمة أبداً تشعر بتداخل الأقنية الفضائية في مخيلتها. ها هي تتخيل الشيخ مشاري يقود الدراجة النارية بنفسه وقد وضع طرف ثوبه في فمه، فظهرت ساقاه النحيلتان الواهنتان، لكنه يصرخ فرحاً ويرمي الثوب من فمه ليستر عريه، ويدفئ جسده الذي بدا يرتجف من البرد، وعندما حاول رفع ثوبه لتغطية جسده يعلق الثوب بطرف المقود فتنحرف الدراجة نحو الهاوية المحاذية للطريق الجبلي. فتضحك مهرة بخبث وهو تقول لنفسها "يا لها من نهاية يا شيوخ مشاري هههههه."

- ألم أقل لك يا امرأة إنها ستُسرُّ بالزواج من الشيخ مشاري.
- لا، لا، لا أريد هذا المسكين.

تأمَّلت الأم التي كانت تلاحظ هيام ابنتها في خيالات أحلامها، فوجدت الفرصة الآن ملائمة لتزويجها قبل تورطها بمغامرة تجلب العار على العائلة، فقالت مبدية كل الودِّ وحنان الأمومة:

- اسمعي يا ابنتي، صحيح أن الشيخ مشاري طيب ومسكين، لكنه أول من جاء يطلب يدك، وأنت تعرفينه جيداً هو شيخ ورب عائلة كبيرة ذات مركز اجتماعي كبير في المدينة.
- لكنني أحلم بالزواج من شاب قوي وليس من شيخ هرم على حافة القبر.

هنا تدخل الأب، وقال لابنته:

- اسمعي يا ابنتي، لو تقدم يطلبك لأحد أبنائه العازبين أو أحفاده الشباب، لكان أفضل لك ربما، ولكنه ما كان ليتبرع بتقديم مهر كبير كالذي وعدنا به، أما كونه على حافة قبره فهذا صحيح أيضاً، ونتفق معك به، لكن فكري أنه سيقع عن الحافة قريباً وترثين ما ترثين من المال.

فوجئت الفتاة بديمقراطية والدها وأعجبتها محاولة مناقشته منطقياً، فقالت:

- ميراث؟ هه، وزوجاته الأخريات، وعشرات أولاده، و، و،و.

فرح الأب لتجاوب ابنته معه وشرع يشرح لها:

- صحيح، صحيح، ولكن اعلمي أن ثروته لو قسمت على مئة شخص لبقي لك ما لا تستطيعين عدَّه من مال، هيا، هيا، واعلمي ايضاً أنه إذا سرَّ منك فقد يمنحك نصف ثروته، وهذا من حقه قبل أن يموت، إنها فرصة ذهبية لا تأتي لأي شخص، ولن تجدي أبداً فرصة مماثلة ما حييتِ.
- والدراسة؟ ألم تقولوا إنني سأصبح معلمة إذا تابعت دراستي؟ وراتب المعلمة ما شاء الله، تحلمون به منذ سنوات!

تابع الأب المعجب بذكاء ابنته، والصابر على مضض على تطاولها في النقاش:

- هذا استثمار أفضل وأسرع نتيجة يا ابنتي، وتعلمين أننا لن نستطيع تزويج أخوانك الشباب لارتفاع المهور، ونحن أسرة متحابة، يجب أن يساعد بعضنا بعضاً.

هنا أحست الفتاة أن الدائرة تضيق عليها أكثر فأكثر فأعلنت قرارها المصيري بصوت عال:

- لا، لا أريد الزواج، اسمعوا وعوا...

التهب فجأة خدها الأيسر، سقطت على الأرض، غاب الأب والأم والأخ في ضباب أصفر اللون، بعض ضياء النافذة الوحيدة في غرفتها صار رمادياً، دارت بها الدراجة النارية في الفضاء وهوت في لجّة الوادي المظلم.

*

دخلت المشرفة التربوية غرفة المديرة وهي ترتعش وكأن حدثاً جللاً جعلها ترتجف من الأعلى إلى الأسفل.

- أيتها المديرة، أيتها الأخت المديرة.
- نعم، ما الأمر؟ ماذا بك؟ ماذا حدث؟
- آ، آ،آ.
- قولي ماذا، مخدرات في مقاعد البنات مرة أخرى؟
- لا، لا.
- مشاكل في حمامات البنات؟

- لا، لا.
- رجل معتوه اقتحم باب المدرسة؟
- لا.
- هيا إذن، انطقي.
- مهرة.
- ماذا، هل نامت اليوم أيضاً على المقعد؟
- لا.

ثارت المديرة غضباً ونهضت عن كرسيها، وأمرتها بالجلوس على الأريكة القريبة وبيدها كأس ماء وقالت لها:

- هيا، أخبريني، حدثيني بهدوء، ماذا جرى؟
- لم تحضر مهرة اليوم إلى المدرسة.
- معقول؟ لم تغب يوماً في حياتها، وهل اتصلت بوالدتها؟

أعادت الموجهة التربوية ترتيب جلوسها على الأريكة الوثيرة وقالت بحكمة:

- لا، أعوذ بالله، لم أتصل، فقد خشيت أن تكون قد ذهبت مع شاب ما، هربت، أو، لست أدري، لا أريد أن أزيد الطين بلَّة إن كان ذلك قد حدث فعلاً.
- سيعرفون الحقيقة عاجلاً أو آجلاً، ماذا تظنين؟

وضعت الموجهة كأس الماء على الطاولة الصغيرة أمامها دون أن تضعها على فمها وقالت:

- عرفت من زميلاتها وصديقاتها أنها كان تحمل صور بعض الشباب والبنات بالزي الأجنبي، ونصف عراة، أستغفر الله، أستغفر الله... وأنها كانت تقرأ بعض قصائد الغزل لشاعر شامي اسمه نزار قباني.
- أعوذ بالله، هذا شاعر إباحي ممنوع الاطلاع على أشعاره، دمه مباح منذ سنوات! كيف يحدث هذا في مدرستي دون علمي؟ إنه "الدش"، والفضائيات الخبيثة. إنها النهاية، يا رب نجّنا من عواقب ذنوبنا.

*

كان الضباب الكثيف الرمادي يشوبه بين حين وآخر بياضٌ تسوده بين لمحة وأخرى غباشات سوداء، وهناك أيضاً رائحة عطر غريبة تملأ رئتيها، تنعشها، فتضغط على جفنيها، لعل حلماً جميلاً يأتي ويكمل المشهد المبتغى، لغط بلغة أجنبية بين شاب وفتاة لا تراهما، حديث وضحكات حقيقية وكأنهما يتبادلان النكت والطرائف. فتحت عينيها فلاح لها رأس شاب دون غترة، عطر صدره القريب من وجهها ينعشها، تسترد شيئاً فشيئاً نجوميتها، بعد همسات استحسان تراود سمعها، خشيت أن تتلاشى صورة هذا الشاب من مخيلتها فأغمضت عينيها ثانية وضغطت جفنيها بقوة على خيال سرعان ما تسرب في حمرة الجفنين الجميلة.

- هل تتألمين؟

صوت رجل غريب، ليس عربياً بكل تأكيد، هل هو الحلم يصبح حقيقة؟

- أرجوكِ، ردّي على سؤالي.

استلقت على أعشاب شاطئ النهر الخضراء الغضة، شعرت بالاسترخاء بعد قبلة حارة فأغفت، ما تزال شفتها السفلى تحتفظ بحرارتها، تؤلمها، تتلظى بنار متَّقدة، هل هي كذلك فعلاً قبلات العاشقين؟ جسدها الفتي ما يزال تحت تأثير خدر جميل.

- شفتي تؤلمني.
- أنا آسف.

صوت تعرفه، هل هو حقاً صوت أخيها متعب، ومنذ متى يتأسف؟ وهل يأسف لرؤيتها تقبل حبيبها جون؟ مفارقة طريفة. ولكن لم لا؟ فقد يكون قد تغير مثلها، ها هي قد سلخت تقاليد مجتمعها، وخلعت عباءتها السوداء واستلقت قربها على العشب الأخضر تحت هذه الشجرة الوارفة ظلها عليهما معاً، هي وجون ملك الدراجات النارية. نعم يمكن لمتعب أن يتحضر أيضاً ويأتي بتلك الغبية عنود إلى هذا المكان البديع، هههههه، عنود؟ هههههه، تلك الغبية. ولكن هل يعتذر متعب حقاً؟

- أنا آسف يا أختي، لم أُرد ذلك.
- أعرف، أعرف، اذهب من هنا واتركني بحالي.
- حسناً، سأذهب، ولكن هل تؤلمك شفتك كثيراً؟
- نعم، إنها حارة جداً.
- اطمئني ستبرد بعد قليل.

"لن أفتح عينيَّ، سواء كان ذلك حلماً أو حقيقة."

برودة منعشة بدأت تحس بها في شفتها السفلى المنتفخة. يا لك من عاشق خبيث، ما هذه البرودة التي يتحلى بها لسانك! وهو الذي أحرقها قبل قليل؟ ما هذا السحر؟

- أوه، خدِّي أيضاً بحاجة إلى عطفك. أنتم أيها الغرباء لا تقبلون خدود الجميلات، تفاح خدي يعجبك، تذوقه!

بعد قليل أحست بشعور غريب ومريح فانتعشت وبدأ الفرح يتسلل إلى تقاسيم وجهها، فتحت عينيها لا إرادياً، يا للروعة، يا للحلم أضحى حقيقة! عينان ضيقتان، وجه أسمر يبتسم لها، يبدو فليبينياً! أغمضت عينيها ثانيةً وفكرت: "ما الأمر؟!" أنا داخل بيت ولست في حديقة! وهذا فليبيني وليس أمريكياً، لا بأس فهو وسيم جداً، نعم، وناعم البشرة أيضاً. فتحت عينيها ثانية وسألته:

- من أنت؟
- أنا الدكتور جون.
- جون؟ لقد تغير شكلك تماماً.
- وهل رأيتني قبل الآن؟
- آه، آخ، شفتي تؤلمني جداً، أنت السبب.
- آسف جداً، حاولت تبريدها ثم تبريد خدك قدر المستطاع.
- أكمل محاولاتك أرجوك. بردهما، بردهما.
- لقد انتهيت بالفعل، ويمكنك الانصراف إلى بيتك للاستراحة.

نهضت وقالت له بحدة:

- لا، لا أريد العودة إلى البيت بعد الآن.

جفل الطبيب وعاد خطوة نحو الخلف وقال بهدوء:

- لست بحاجة لخدمات المستشفى، فأنت بكل خير وسوف تستعيدين صحتك خلال أيام قليلة.
- مستشفى؟! هل أنا حقاً في مستشفى الآن، ولماذا؟
- نعم، أنت في المستشفى الآن، وأنا الدكتور جون، وهذه هي الليلة الثانية لك هنا، فقد كنت في غيبوبة إثر صفعة أخيك لك على خدك فعضضت شفتك السفلى قبل يومين.

استوعبت مهرة القصة كلَّها فضحكت بجنون، مما شجع الطبيب للقول:

- يسعدني أنك سعيدة الآن.

لكنها بدأت في البكاء فجأة مدعية الحاجة الماسة للبقاء في المستشفى لفترة أطول. فتركها الطبيب بعد أن أوصى الممرضة بمراقبتها، ريثما يكتب تقريره الطبي عن حالتها في العيادة.

*

في المدرسة، حل الوجوم على إدارة المدرسة بعد اطلاعها على حكاية مهرة، أما زميلاتها في الصف فقد بدأن يتندرن عليها.

- فعلا هناك فرق بين الشيخ مشاري وجون ترافولتا.

- الدراجة النارية تحولت إلى كريسيدا.
- مجنونة، تترك عشرة كيلو غرامات من الذهب!
- حظ!
- ليتني مهرة!
- أنت فرس وليس مهرة.
- لا بأس، المهم الخيَّال والذهب!

ولا تنتهي ثرثرات البنات قبل دخول معلمة الصف.

*

قبض الأب مئة وخمسين ألفاً، عدَّاً ونقداً، وقبضت الأم عشرين ألفاً بالإضافة إلى كيلو من المصاغ الراقي، ثم وُزِّعت حصص الهدايا الثمينة على أفراد العائلة حسب الأصول والأعراف.

في ليلة العرس قررت مهرة التَّمتُّع بالتجربة المجبَرة عليها، فشردت تحلم بفارسها المقدام، بعد أن سلمت جسدها للشيخ مشاري الثمانيني، وأغمضت عينيها كيلا تتأثر جماليات ذاكرتها بالواقع المفروض.

تناول مشاري كبسولة المنشط ثم هرع إلى غرفة العروس التي تظاهرت بالنوم دلالاً كما حسب ذو الخبرة الطويلة، فبدأ يرفع عنها حليها وثيابها حتى كلَّت يداه المرهقتان، وهي تتكلم كلاماً غير مفهوم وتتقلب يمنة ويسرة وتموء بشكل زاده إثارة وشبقاً يزداد مع اكتشاف كل جزء جديد من مرمر جسدها الغض الناعم، وحينما لامست يداه الباردتان صدرها البض انتفضت واستدارت إلى ظهرها فبدا كتفاها

العاريان ناعمين، ينسابان نحو الأسفل بإغراء ألهب ثوران الشيخ الطاعن بالسن المستعجل لقضاء أمره قبل نفاذ مفعول المنشط. فاستعجل بالقول:

- هيا يا ابنتي هيا.
- ماذا تقول؟ ابنتك!

تلكأ مشاري وشعر بجريمة مقولته فاستغفر الله ثلاثاً مما صدم اندفاعه فجأة، فقالت ببرود مبالغ فيه:

- خذ ما تريد يا شيخ مشاري، ولن أقول يا جد مشاري، هيا، أنا لا أمنعك أبداً.
- ساعديني قليلاً، أرجوك!

أخفت مهرة ضحكة خبيثة في سرِّها وقالت بحكمة الكبار:

- الطعام لذيذ بعد الجوع يا شيخ.
- لست جائعاً. من قال إنني جائع؟

أعجبها ذكاؤها وغباؤه فتابعت:

- الراحة لذيذة بعد التعب يا مشاري.

بدأ مفعول المنشط يزول شيئاً فشيئاً فأسرع مشاري، بخلع ملابسه المزعجة، لكن رجولته أفلتت منه فور ملامسة أصابعه مبتغاه.

هنا استغلت مهرة الفرصة ونبَّهت رفيق الفراش بعنفوان مهرة لعوب:

- ماذا تفعل؟ هل ستتزوج بإصبعك الموهنة يا زير النساء؟
- اسكتي، اخفضي صوتك ولا تفضحيني يا مهرتي، أرجوك.
- لماذا تتزوج بنات الناس يا شيخ، إذا لم يكن باستطاعتك القيام بواجبك يا زوجي الحبيب.
- .....
- لماذا سكتَّ؟ أين رجولتُك؟
- لا تبالي، سأتناول كبسولةً ثانيةً.

فوجئت مهرة، ولم تفهم قصده، فأشار إليها أن تبقى في مكانها وسيعود إليها خلال ثوان.

*

طرقات خفيفة على الباب دون جواب، وبعد لحظات يخرج الدكتور جون من غرفة الحمام وهو يثبت فوطة بيضاء كبيرة حول وسطه، ويتجه نحو المرآة الكبيرة، فيرى فيها امرأة شابة تقف بالباب المفتوح خلفه.

- لقد طرقت على الباب عدة مرَّات، وكان مفتوحاً بالفعل فدخلت.

تقدمت مهرة بكل جرأة من الدكتور الشاب جون الذي كان قد بدأ يرش جسده نصف العاري بعطر تذكرته فاستنشقته بشغف ورعشة.

- أهلاً بك. ولكن من أنت؟ ولماذا تدخلين شقة شخص أجنبي؟ ماذا تريدين؟

لم ترد النمرة، ولم تعر ارتباكه أدنى اهتمام، بل رفعت النقاب عن وجهها، فبدا ضوء القمر يشع الأنوثة والجمال، رمشان أسودان غطا سحر عينين واسعتين كحيلتين بينما افتر الثغر عن عبارة " هئت لك، رحيقي لك، كلي لك".

لم ير الدكتور جون أمامه سوى مقصلة، وخلفها مئات الناس كل يحمل حجراً بيد وسوطاً في اليد الأخرى، على يمين المقصلة شيخ يقرأ صك تنفيذ شرع الله يحيط به سياف وجلاد. وعلى يسارها خيالُ راهبٍ يرسم إشارة الصليب خلسة على صدره.

- ألم تعرفني يا جون؟ أنا مهرة التي لم تتمنَّ الخروج من قصرك.
- كيف عرفت عنواني، وماذا تفعلين هنا؟ ألا تعلمين قوانين بلادكم؟ هل أتيتِ لكي تنهي حياتي وحياتك معاً؟ المستشفى قريب إن احتجت أيَّ شيء.

ضحكت مهرة بصوت عال، واتجهت نحو آلة تسجيل رأتها للتو وشغَّلتها، فاندفعت موسيقى جاز حالمة، أغمضت عينيها نصف إغماضة واتجهت نحو جون، ثم فكَّت ربطة فوطته، وقالت:

- لا تخشَ شيئاً، الباب مقفل والمفتاح معي، والسائق بانتظاري على مسافة أمان كافية.

المحتوى

لجة الألم..... 3

على ضفة الشهادة 18

على الصخرة 23

الجدار 26

الحارس 30

الثأر 35

خسارة 40

صداع 42

الطيف الأحمر 47

هي، هي 52

توأمة 59

عشرة عمر 65

غلطان 67

فرحة 70

الوصول إلى كوالالمبور 75

شوق العربية 79

فوق بحر العرب 82

قطرات المطر 85

ضيوف 87

جارتنا 93

وحدة 95

ألوان 97

لص البنوك 100

فرعونان 102

اعتراف 109

رثاء 112

شفة السلام 116

سديم 118

المحتوى 119

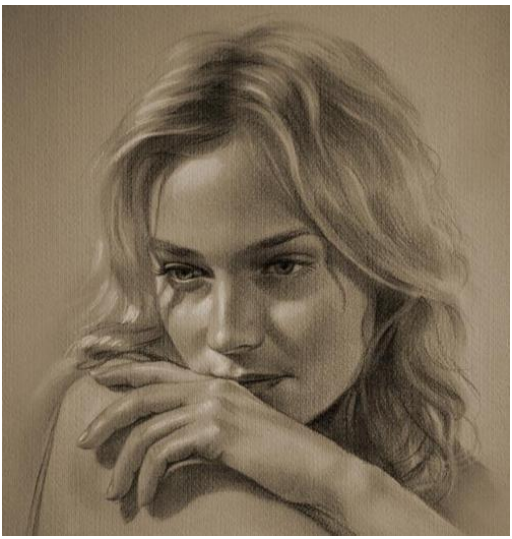

الكاتب في سطور

علي أحمد ناصر

مهندس – كاتب قاص ومترجم

- ماجستير في الهندسة الالكترونية الراديوية – جامعة فارنا التقنية – بلغاريا 1986
- دبلوم ادارة عامة وإدارة أعمال –كامبردج – بريطانيا
- دبلوم لغة انجليزية–كامبردج – بريطانيا
- كاتب صحفي حر
- Freelance Writer- Writers Bureau, Manchester .UK
- مدرس في جامعة البعث.
- مهندس استشاري في الهندسة التلفزيونية.
- مدير إداري في شركة خاصة.

صدر للكاتب

باللغة البلغارية

- ابن العالم. شعر

في الهندسة:

1- دارات الكترونية، كتاب جامعي.

مجموعات قصصية:

1- كنة أبي غسان – دار الجاحظ 1991
2- سكرتيرة – دار إياس 1995
3- ماري – دار أرواد – 2014

ترجمة عن اللغة البلغارية:

1- اثنا عشرة زوجاً من العيون – المعلمة أويشي – رواية يابانية لساناي تسوبوي.
2- الملك ماركو – قيد الطباعة.
3- أنطولوجيا القصة البلغارية – قيد الطباعة.

ترجمة عن الانجليزية:

1- سميرة الصغيرة – حكايات خيالية للأطفال.
2- سر الهارب من البوليس – قصص ونصوص للفتيان
3- في فضاء الصمت، فيجاي اسواران
4- قصص من آسية وأفريقية. – قيد الطباعة.